ثم يقول الله تعالى:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٠]

تصلُ بنا هاتان الآيتان أخي المؤمن إلى نهايةِ الفصل الثالثِ مِنْ قِصّةِ يوسفَ عليه السلام، بانتهاءِ محنةِ المراودة مِنْ جهةٍ أُولى لتبدأَ مَعَها محنةٌ جديدةٌ مِنْ نوعٍ آخر هي التي سَتُفتَحُ له بابَ المجد، من جهةٍ أُخرى..

يقولُ الله تعالى: ﴿**فاستجابَ لهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عنه كَيدَهُنّ**﴾.

في هذا الشطر من الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تحوُّلِ أُسلوبِ السردِ منْ توترٍ، واحتقان في الآياتِ السابقة، إلى هدوءِ الاحتقانِ وتنفيسِه مَعَ قولِ الله تعالى: ﴿**فاستجابَ له ربُّه**﴾.

اللطيفةُ الثانية: في تناسُقِ الأُسلوبِ اللُّغويِّ بين مطلبِ يوسفَ عليه السلام في مُناجاتهِ في الآيةِ السابقة، حين قال: ﴿**رَبِّ السِّجْنُ أحبُّ إليَّ**﴾ والآيةُ موضوعُ تأمُّلِنا هنا. ففي أغلبِ سورِ القرآن، خصوصاً حالَ مُناجاةِ الأنبياءِ والرسل، نجدُ أُسلوبَ الردِّ على المناجاةِ بصيغةِ: ﴿**فاستَجَبْنا له**﴾(١)، كمثلِ قولِ الله تعالى: ﴿**ونوحاً إذْ نادَى مِنْ قَبْلُ فاستجَبْنا له فنَجَّيْناهُ وأهلَه**﴾(٢). وكقولِ الله تعالى: ﴿**فاستجبْنَا له ووهبْنا له يَحيى وأصْلَحْنا له زَوْجَه**﴾(٣).

أمّا في الآيةِ الكريمةِ، فقد جاءَ الجوابُ متناسقاً مَعَ ذِكْرِ كَلمة «**ربِ**»، في الآيةِ السابقة، فقالَ الله تعالى: ﴿**فاستجابَ له ربُّه**﴾.

---

(١) [سورة الأنبياء، الآية: ٨٤]

(٢) [سورة الأنبياء، الآية: ٢١].

(٣) [سورة الأنبياء، الآية: ٩٠].

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عنْد مضمونِ ٱستجابةِ الله عَزّ وَجل، لطلبِ يوسفَ عليه السلام.

لقد شَعَر يوسفَ عليه السلام، أَنّ النِّسْوَةِ وعلى رأْسِهنّ ٱمرأةُ العزيز، يمارِسْنَ ضغطاً نَفْسياً شديداً عليه، يتمثّلُ بكلِ أصنافِ الإغراءِ والإغواء.

وهو شابٌ في مقتبل العمر، يَعْرِفُ أَنهُ إنسانٌ بشر مِنْ لحم ودَم، ويَعْرِفُ أنه عُرضةٌ لما يَتَعرَّضُ له البَشرُ مِنْ نَوازِعَ وأَهواء، ويَعْرِفُ أنّ كَثيراً مِنَ الناسِ يَسْقُطُونَ في ٱمتحانِ الإرادةِ، إذا ما ٱعتمدوا فقط على قوةِ قهرِ النفسِ لديهم.

ويعرفُ أنه لا يَمْلِكُ سُلْطةَ إبعادهِنّ مادياً عنه: فلا هو في موقعِ السُلْطةِ لِيَصْرِفَهُنّ بكلمةٍ واحدةٍ آمرةٍ منه، ولا هو يَقْدِرُ على الفِكاكِ مِنْهُنّ بحُكْمِ صِفتِه فَتىً في القَصْر.

فما كانَ منه، بعد أنْ أدْرَك هذا الواقعَ الحَرِج، إلا أَنّ طَلَبَ مطلباً حَاذِقاً، فيه الخلاصُ دونَ خَسائرَ كُبْرى: أَنْ يَصْرِفَ الله تعالى عنه كَيْدَهُنّ، فلا يكونُ بذلك قَدْ تَسَبّب بأذيةٍ لأحد:

- فلا يُؤْذِي نفسَه بمحاولةِ الفِرارِ كما فعَلَ في المرةِ السابقة.
- ولا يَؤْذِي النِّسوةَ بدفْعِهنّ عَنْه فيما لو ٱقتربْنَ منه.
- ولا يُؤْذِي وُجَهاءَ المدينة، بما قد يُشَاعُ حولَ زَوجاتِهمّ مِنْ سُوءِ سُمْعَة.

اللطيفة الرابعة: في مُطابقةِ الٱستجابةِ لعينِ المطلب، فقد طلبَ يوسفُ عليه السلامُ مِنَ الله تعالى، أَنْ يَصْرِفَ عنه كيدَهنّ، فجاءَ الجوابُ في هذه الآية: فصرفَ عَنْهُ كَيْدَهُنّ.

وفي هذا إكرامٌ مِن الله تعالى ليوسفَ عليه السلام، نغتبطُ له.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿إنه هو السميعُ العليم﴾**.

في هذا الشَطْرِ الأخير مِن الآية، تذكيرٌ لنا بأمْرين اثنين.

الأول: أَنَّ الله تعالى، حين ذكَر اسْمَ السميع، وهو مِنْ أسمائِه الحُسْنَى أَرادَ أَنْ يُعْلِمَنا أَنّ الحُكْمَ في الآية. يَنْطَبِقُ على كلِ الناسِ في الاستجابةِ لدعائِهم، فجاءَ لفظُ السميعِ مُعَرَّفاً، ومَسْبوقاً بعلامتي توكيد، **﴿إنه﴾** و**﴿هو﴾**. ونفهمُ مِنَ الآيةِ أَنّ الله تعالى يَسْمَعُ دعاءَ الداعي في كلِ وقت، وفي كلِ حين، والاستجابةُ لا تكونُ فقط للأنبياءِ والمرسلين، بل للمؤمنين كافّة.

الأمرُ الثاني: هو علمُ الله تعالى، الذي لا تَخْفَى عليه خافيةٌ في الأَرضِ ولا في السماء، فجاءَ التذكيرُ بإيرادِ اسمٍ آخرَ مِنْ أسماءِ الله الحسنى، وهو **﴿العليم﴾**، أيضاً مُعَرَّفاً ومؤكّداً، للدلالةِ على أَنْ لا شيءَ يَحْصُلُ إلا بعلمِهِ، في كلِ حينٍ وآنٍ، وعلى وجهِ الخصوص، في موضوعِ يوسفَ عليهِ السلام، فقد تَكَفَّل الله تعالى بحفظهِ ورِعايتهِ وهو أَعلمُ بما يقعُ معه مِنْ أَحداث.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿ثم بدا لهم مِنْ بعدِ ما رأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ كلمةِ **﴿بدا لهم﴾**.

الذين بدا لهم، هو العزيزُ ووُجَهاءُ المدينة، الذين وَجَدُوا أَنفسَهم جميعاً في صعيدٍ واحد، بعدَ أن انتشرتْ أخبارُ مجلسِ المراوَدَة.

ونفهمُ منْ كلمةِ **﴿بدا لهم﴾**، أنهم عَقَدوا اجتماعاً خُصِّصَ لبحثِ مسألةِ يوسفَ مَعَ النِسْوَة، تَمّ خلالَه استعراضُ الوقائعِ والأَحداث، وهو ما عَبّرت عنه الآيةُ الكريمةُ بقولِ الله تعالى: **﴿مِنْ بَعْدَ ما رَأَوُا الآيات﴾**، وهذا حدثٌ لافت، أنْ يُفْرَدَ اجتماعٌ على مستوى مُمَثّلي الأُمة، لبحثِ مصيرِ خَادِمٍ في قصرِ العزيز.

لكنّ مدلولاتِ الحدث، كانَتْ على قَدْرٍ كبيرٍ منَ الأهمية، إستدعى حُصولَ هذا الاَجتماع:

فالظاهرةُ الأُولى: هي حادثةُ القميص، وما نَتَجَ عنها منْ شُيوعِ نبأ براءَةِ يوسفَ مما نُسِبَ إِليه، وتجريمِ اَمرأةِ العزيزِ بجرمِ المراودة.

الظاهرة الثانية: هي تقطيعُ النِّسوةِ لأيْدِيهِن، وهذه الحادثةُ لا تَقِلُّ أَهميةً عنِ الحادثةِ الأُولى.

الظاهرةُ الثالثة: تأثُّرُ كلِّ النِّسوةِ بجمالِ يوسفَ عليه السلام، وعدمُ اَنتهاءِ المسألةِ في نظرِ المجتمعين. عند هذا الحد، مما قد يؤدِّي مَعَ تطورِ الأحداث إِلى بلبلةٍ في المدينة، لا تُحْمَدُ عُقْبَاها.

يضافُ إِلى ذلك، عدمُ مَعرفِتهم بما كانَ من صرفِ كيدِ النِّسوةِ عن يوسفَ عليه السلام، واَستمرارُ تَخَوُّفِهم من جولةٍ جديدةٍ من المراودة.

اللطيفة الثانية: أنّ الله تعالى سمّى الأحداثَ التي حصَلَتْ بالآيات، وفي هذا تكريمٌ بالغٌ ليوسفَ عليه السلام، وتثبيتٌ لمواقِفِه المُشرِّفَةِ في رفضِ الاَنصياعِ للغِواية، وجُرأتِهِ وتَحدِّيه للتهديدِ بالسَجْن أوِ الصَّغَارِ أَو العذابِ الأليم.

اللطيفة الثالثة: في دَهْشَتِنا لما تَوصّلَ إليه المجتمعونَ مِنْ قرارٍ لحل أزْمَتِهم: إِنهم في موقفِ حَرَجٍ تَسببَتْ به اَمرأةُ العزيزِ أَصلاً، ونِسْوَةُ المدينةِ تَبَعاً، لا يدَ ليوسفَ فيه، فهو لم يُراوِدْهُنّ عَنْ أَنْفُسِهنَّ طَرْفَةَ عين، ولم يَقُمْ بإغرائهن، ولم يَخْرُجْ إِليهِنّ مُختاراً، لقد جَرتْ به الأحداثُ وهو يَتَجنّبُها ما اَستطاع، حتى إِنه لم يَقُمْ بأيِّ عملٍ مَادِّي في رَفضِه، كان من الممكنِ أَنْ يَفَسّرَ بأَنه تَهَجُّمٌ أو أذية.

فماذا يكونُ الحُكْم؟: أنْ تُسْجَنَ الضحيةُ ويُتْرَكَ المذنبُ حُراً طليقاً!

إلا أنه حكمُ الهروبِ والتعمية، فلا العزيزُ ولا رجالُه تَجَرّؤُا على إِحقاقِ

الحقِ ودَحْضَ الباطلِ، وقَرّرُوا الخروجَ بأَقلِّ الأَضرارِ الممكنة، ولو على حسابِ ظُلْمِ رجلٍ بريء، هم مُدْرِكُوَن مستيقنون براءَتَه.

كم مِنَ الذِمَمِ مُثْقَلَةٌ بالظُلْم، ستأتي يومَ القيامةِ لتؤدِّيَ الحُقوقَ إلى أَصحابها؟!.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الله تعالى قريب مجيب الدعاء فإذا ما دعاه المظلوم، أو ذو عسرة، أو محصر، فإنه يستجيب له؛ وقد تكون الإستجابة حالة مباشرة، وقد تكون مؤخرة لحكمة عند الله تعالى قد يعقبها خير عميم.

٢ - للدلالة على أن الكثير من المظالم تقع بين الناس، على مرأى ومسمع من أصحاب السلطة، أو حتى منهم على المحكومين، وترتكب المظالم نهاراً جهاراً، بصلف وتعنت وكبر، وهم يحسبون أنهم بمنأى عن الحساب، لكن الله تعالى لا يُظلم مثقال ذرة، والكل مساق إلى الحساب.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣١]

نبدأُ مَع هذه الآية، أخي المؤمن، فصْلاً جديداً منْ فصول قصةِ يوسفَ عليه السلام، في أَجواءٍ جديدة، تبدو في الظاهر وكأنها ٱنحدارٌ في مستوى المعيشة، وفي أعينِ المتابعين للأحداث، ظُلماً فاحشاً أَصَابَ يوسفَ عليه

السلام، وهي في الحقيقة تدبيرٌ رَبّانيٌ ما عَرَف فَاعِلُوه أنه حَلقةٌ مكتوبةٌ في سلسلةِ صعود يوسفَ عليه السلام نحوَ القِمَّة.

وقبل أَنْ نبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة، نتوقَّفُ عندَ هذه النَّقلةِ النوعيةِ في مَشَاهِدِ القِصةِ، لِتَخرج بالملاحظاتِ التالية:

يتغيَّرُ الجوُ العامُ في السرد، انطلاقاً من هذه الآية، وَمَعها يَتَغيَّرُ مفهومُنا لارتقابِ الأحداثِ وتَسَلْسُلِها: ففي الفصلِ السابق، عِشْنَا في أَجواءِ المجتمعِ الراقي في أَدَقِّ تَفاصِيلهِ، وفي أَعمقِ خُصوصِيَّاتِه، وتَعرّفْنَا إلى اهتماماتِه ومشَاغِلهِ، ورأينا صُورةً عنِ المجتمعِ النِّسائيِّ فيه، ومجَالِسهِنّ، ومَكَائِدِهن.

هذا المجتمع، الذي يُكَرِّرُ نفسَه في كلِّ الحضارات في كلِّ العصور: تَرَفٌ وغِنى، فَراغٌ قاتل، دَسائِسُ ومُفاخرات، بَطْشٌ وظُلْم، بُعْدٌ عنِ الله تعالى، خِياناتٌ زَوْجِيّة، تَخَاذُلٌ وضَعْفُ حَمِيّة... مِنْ كلِّ هذا الجوِّ الموبوءِ خَرَجَ يوسفُ عليه السلام، سالماً غانماً آمناً مَحْمِيّاً بِحمَى الله تعالى.

وها نحن مع هذه الآية نتهيأُ لنعيشَ أَجواءَ العُزْلَةِ والظُّلْمةِ، أَجواءَ السُّجونِ والمساجين في نزولٍ سريعٍ في سُلّمِ طَبَقاتِ المجتمع، متجاوزينَ طَبقاتِ الميسورين، والطبقة المتوسطة، والطبقة الفقيرة، والطبقةَ المُعْدَمَة. لنصلَ إلى حيثُ يُجَرّدُ الإنسانُ مِنْ حُرِّيَتِه، ويصبحُ أسيرَ القُضْبَان، وتحتَ إمرةِ السّجّان: هو عِقابٌ تَوافَقَ البشرُ عليه، لإشعارِ المعتدينَ مِنْ بينِهم على أَمنِهم وسلامتِهم ومُمْتَلَكاتِهم، بأنهم غاضِبون من تَصَرُّفَاتِهم، ولِحَثِّهم على العودةِ إلى الاستقامةِ والنزاهةِ، والسيرِ مَعَ الناسِ في خطِ التعايشِ الهادىء وتَبادُلِ المنافعِ والتآزر، لِدَرْءِ المخَاطِر.

وحين يصلُ الخارجُ عن تَوافُقِ المجتمعِ على مُصْطَلحِ السلوك السليم إلى السِجْن، يكونُ قد قَطَعَ شَوْطاً كبيراً في التميُّزِ عن بقيةِ الناس، في نظرتِه إلى

الحياة، فهو غالباً ما يكونُ ناقماً على المجتمع، يَعتبرُ نفسَه مُضْطَهداً، مَحْرُومَاً مُعاقباً في الحياةِ بلا ذَنْب، قَاسِيَ القلب، يَسْتَسهِلُ التعدِّيَ على حُرماتِ الناسِ وأَموالِهم، عنيفاً يلجأُ إِلى الخَلْعِ والكَسْرِ والقَتْل، ضَحْلَ الثقافةِ والعِلْم، سريعَ الغضب، قصيرَ النظر، مَعْدُومَ الاتِّزان.

فإِذا ما تَمَّ تجميعُ هذه الخصائصِ المتمثِّلةِ في شَخصِ المجرم مَعَ آخرين جاؤُوا هُمْ أَيضاً بخصائِصهم، يَحْصُلُ تَمازُجٌ وتفاعل، يَتولّدُ عنه بيئةٌ جديدةٌ خاصة، مُتَلوِّنَةٌ بشتى أَنواعِ الأَمراض، تَخْتَلِطُ فيها العبثيةُ باللّامبالاةِ، يتلمذُ فيها صغارُ الشُطارِ على أَيدي كبارِ القَتَلة، وتَتماوَجُ فيها العواطف: مِنْ شعورٍ بالذَنْبِ والنَّدم، إِلى الإِصرار والتَصْمِيمِ على الانْتقام، إِلى انْعدامِ الشعورِ بالعطفِ والرأْفة.

هذا الواقعُ الذي يُصَوِّرُ المجرمينَ الحقيقيين، لا يَنْسَحِبُ على فئةٍ أُخرى مِنَ الناس، حُبِسَتْ عَنْها حُرِّيَتُها، عَدْلاً أو ظُلْماً، ليس لتأَصُّلِ الإِجرامِ في نفوسِها، وإِنما لأَسبابٍ أُخرى شتى، بعضُها اقتصادِيٌّ، والبعضُ الآخرُ عَاطِفي، وأحياناً خطأ..

إِلا أنّ الخَطَر يَكْمُنُ في وضعِ هؤلاءِ مَعَ أُولئك، وَمَثَلُهم في ذلك كَمَثَلِ وضعِ الحِمْلانِ مَعَ الذِئاب، والمؤسِفُ أنّ هذا هو الذي يَحْصُلُ.

إِلى مثلِ هذه الأجواء، انْتقلَ يوسفُ عليه السلام، فماذا كان منه؟

نبدأُ تأَمُّلَنَا أخي المؤمن في هذه الآية من آخرِها على خِلافِ ما اعْتَدْنَا عليه في تأَمُّلِنا للآيات.

يقولُ الله تعالى في آخرِ الآية، على لسان السجِينين: ﴿**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

هذا هو الاستنتاجُ الذي وَصَلَ إليه نَزِيلا السِجْنَ مَعَ يوسفَ عليه السلام.

وما كانا ليصِلا إليه لولا أَنهما رَأَيا مِنْ يُوسفَ عليه السلام، مِنَ الصِّفاتِ ما دعاهما إلى مَدْحِه والثناءِ عليه.

في هذا الشطرِ من الآية، نَتَعرّفُ إلى ملامحَ جديدةٍ في شخصيةِ يوسفَ عليه السلام.

ففي جوِّ السِجنِ الموبوء، نرى أولَ إشارةٍ قرآنيةٍ إلى بَدْءِ مُهمةِ يوسفَ عليه السلام، بالدعوة إلى الله تعالى، بكلِ ما أُوْتِي مِنْ وسائل، وعلى رأسِها وأَولُها: الخُلُقُ الحَسَن، والتصرفُ الحَسن، حتى دونَ التفَوُّهِ بأيةِ كلمة.

فإذا به، بما أُوتِيَ مِن قوةٍ في الشخصية، يُثيرُ ٱنتباهَ السُّجناء، ويَلْفِتُ أَنظارَهم، ويَنْقُلُ إليهم شُعوراً بالتميُّزِ عنهم؛ يَفْرِضُ عليهم نفسَه دونَ ادِّعاء، يَدْخُلُ قلوبَهم دونَ ٱستئذان.

لقد حافظ يوسفُ عليه السلامُ على اتزانِه وهُدوئه، وأَثبتَ ثِقَتَهُ العاليةَ بالله عَزّ وجل، ونُصْرَتِهِ: لم يَرَ في محنتِه الجديدةِ عقاباً بل على العكس من ذلك. فقد وجدَ فيها سبيلاً جيداً للدعوةِ إلى الله تعالى في مجتمعٍ لم يُحَصنْ نفسَه بالمالِ والترف، فأضحى بيئةً خِصبةً تتأججُ فيها العواطفُ والأهواءُ حيث يمكن للمستمعِ أن يفتحَ للدعوةِ أذنَه وقلبَه، غير قانعٍ بما زينتْ له نفسُهُ من ركونٍ إلى الجاه والغنى.

وبما أنّ الله تعالى شاءَ أَنْ يَجعَل مِنْ علاماتِ فَضْلِه وكَرمِه على يوسفَ عليه السلام، تَمَيُّزَهُ بتعبيرِ الرُّؤَى، فقد ساقَ إليه هذين الفَتَيين، فلاحظاهُ بتدبيرٍ منَ الله تعالى، ثم أراهُمَا الله تعالى رُؤيا في آنٍ واحدٍ وهو ما يَفُوقُ نسبةَ التوافُقِ والمُوافقةِ في المعتاد، لأمرٍ شاءَهُ الله تعالى. سيَظْهَرُ لنا في اللاحِقِ منَ الآيات.

نعودُ إلى أوّل الآية، يقولُ الله تعالى: **﴿ودخَلَ معه السِجْنَ فَتَيان﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تركيزِ الانتباه مُباشرةً إلى حدثٍ واحدٍ مِنَ المشهد، مُتَجاوِزِينَ كُلّ الأحداثِ السابقةِ والمحيطةِ بإقامَتِه في السِّجْن، وهو ما يُسمّى في لغةِ التصوير: استثبات، أو تحديج: ففي السِّجْنِ، غيرُ السَجينين، السَجّان والقُضبان، والمساجينُ الآخرون، وحياةُ السِّجن، وعن كلِ عنصرٍ من عناصرِ المشهد، تفصيلٌ وكلام، إلا أَنّ الآيةَ الكريمةَ جاءتْ بإيجازٍ بليغٍ، فأعلَمَتْنَا بما يَنْبَغي لنا معرفتُه منَ الواقعِ المعِيش في هذه الفترة منْ حياةِ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في وقوفنا عندَ عبارة: ودَخَلَ مَعَه، وهي تختصِرُ قَوْلِنا: ودخلَ ودَخَلَ معه. والتعبيرُ لطيف، إذ إنه يُبْعِدُ عنِ الذهنِ فكرةَ السوقِ والدفعِ التي تُصاحِبُ غالباً مَفهومَ دخولِ السِّجن.

اللطيفة الثالثة: في تَسميةِ السَجِينين بالفتيين، وقد تَوافَقَ المفسرونَ على أَنهما سَاقي الملكِ وخَبّازُه.

الحقيقةُ أنّ هذا هو طَرفُ الخَيطِ الحقيقيِّ، الذي جعلَه الله تَعالَى سبَباً لعلُوِّ شأْنِ يوسفَ لاحقاً في أَسبابِ الدنيا، وهذه إشارةٌ هامةٌ للتعرُّفِ إلى تقاديرِ الله تعالى، في كيفيةِ تقلُّب الناسِ في الدرجاتِ وهو بعضٌ من سُنّةِ الله تعالى، وأحدُ قوانينِ علمِ الاجتماع، ومُفَادُه:

أَنّ حياةَ الناسِ خيوطٌ تَتَقاطَع، بعضُها يتّصِلُ وبَعْضُها يَنْقَطِع؛ ما اتصلَ منها، يَفْتَحُ بابَ علاقاتٍ جديدةٍ: إمّا صعوداً، يرفَعُ المعنيَّ إلى طَبقاتِ العِلْيَةِ مِنَ القوم، وإمّا هبوطاً، يُرْدِي المعنيَّ في أَوحال الأَرض.

وخيرُها جميعاً الصُحبةُ الحَسَنة، حين يجتمعُ المجتمعونَ على محبةِ الله تعالى وطاعتهِ ويَتَفَرَّقُونَ على التعاهدِ على مراقبةِ الله تعالى، وعدم مَعْصِيته، كالبُنيانِ المرصوص، يَشُدُّ بعضهُ بعضاً.

لقد فتَحَ الله تعالى ليوسفَ عليه السلام، أوسع بابٍ في الدنيا، من أَضيقِ فُرْجة، حتى يعلمَ الناسُ أنّ الله تعالى، إنْ شاءَ، رَفَعَ مَنْ يشاء، وإنْ شاءَ، أذَلّ مَنْ يشاء وهو القادرُ على كلِّ شيءٍ قدير.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالَ أَحُدهما إِني أَراني أَعْصِرُ خَمراً وقال الآخرُ إني أراني أحملُ فوقَ رأْسِي خُبزاً تأْكُلُ الطيرُ مِنه﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولهِ: **﴿إني أَراني﴾** الأولُ والثاني. وفي هذا إِشارةٌ إِلى الرؤيةِ في المنام، وكأنه يقول: إِني أرى في الرُّؤيا أَني. إِلا أنّ كلمةَ أَراني، تأْتي ذاتَ وقْعٍ أَرَقّ وأَدَقّ.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا على فحوى الرُّؤيا: قال: **﴿إني أَراني أَعْصِرُ خمراً﴾**. انتهى. في عُرفنا، هذا غيرُ كافٍ على الإِطلاق لِفَهْمِ المعَنى مِنَ الرؤيا، لأنها مُقْتَضَبَة، والفِكرُ البشريُ لا يُمْكِنُه أَنْ يَتعَدّى ما أَوْدَعَ الله تَعالى فيه مِنْ قُدُراتٍ، إِلا إِذا قَضَتْ مَشيئةُ الله تعالى، أَنْ يَفْتَحَ على بَصيرةِ مَنِ اصطفى مِنْ عبادِه، فيُرِيَهُ بنُورِه ما لا يرَى المُبْصِرونَ، وهذا ما اخْتَصّ به يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثالثة: لغوية في قولهِ: **﴿أَعْصِرُ خمراً﴾**. وهنا مجَازٌ مُرْسَل؛ فما يُعْصَرُ هو العنب ثم يُحَوَّلُ بعدَ ذلكَ إِلى خَمْر، والعلامةُ ما يؤولُ إِليه فقد سُمِّيَ العنبُ خمراً، لأنه يَؤُولُ إِلى الخمر، كونُه المقصودَ منَ العصر.

ونفهمُ من نَصِّ الآية، أَنه كان سَارِياً فيهم، ولا عَجَب، فحيثما ذَرَّ الشيطانُ قَرْنَهُ، جَعَلَ الخَمْرَ في مُقَدِّمَةِ أَدواتِه.

ثم تَنْتَهي الآيةُ بقولِهما: **﴿نَبِّئْنَا بتأْوِيلِهِ إِنّا نراكَ مِن المُحْسِنين﴾** وقد سَبقتِ الإِشارةُ في بدايةِ تأَمُّلِنا إِلى تَمَيُّزِ يوسفَ عليه السلام مما أَلجأَهُمَا إِليه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب التخلق بالأخلاق الحميدة في أي موضع وجد الإنسان نفسه فيه، حتى في أوساط العتاة القساة، لأن هذه الأخلاق الحميدة يمكن أن تترك أثراً طيباً في نفوسهم، قد تكون سبباً في هدايتهم إلى الطريق المستقيم.

٢ - للدلالة على وجوب الصبر حال التعرض إلى ظلم، كأن يسجن إنسان ظلماً وعدواناً، ولنا في أنبياء الله تعالى ورسله أسوة حسنة، فقد سجن يوسف عليه السلام ظلماً وعدواناً، والله تعالى وجوب الإحتساب والصبر لعلمنا بأن كل ما يجري لنا يحصل بعلم من الله تعالى وتقدير.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٢]

سنبدأ مَعَ هذه الآية أخي المؤمن، بالتعرُّف أَكْثَر فأَكْثَر إلى عمقِ شخصيةِ يوسفَ عليه السلامُ الدّعَوِيّة، ومنها نستقي المعَالِمَ الرئيسيةَ للدّاعية، تصحيحاً وتصويباً لمنهجِ الدُّعاةِ إلى الله تعالى.

لقد سُئلَ يوسفَ عليه السلامُ في الآيةِ السابقةِ سؤالاً، يدورُ حولَ تفسيرِ رُؤيا رآها صاحباه في السِجن

المعتادُ بينَ الناس، بعدَ أَنْ يسمعَ الواحدُ مِنّا إطراءً بسَعَةِ عِلْمِه، أَنْ يُسْرِعَ بالإجابةِ عنِ السؤال. فماذا كانَ مِنْ يوسفَ عليه السلام؟

لم يتسَرّعْ في الإجابة، وإنْ يَكُنِ الجوابُ حَاضِراً لديه، وفي طياتِه خَبرُ مَقْتَلِ أحدِهما، بلِ آبتعدَ عَنْ موضوعِ السؤالِ كُلّياً، وانْطلقَ في حديثِهِ مُفْتَتِحاً خِطاباً مَنْهجيّاً هادفاً، يتمحورُ حولَ موضوعِ الدعوةِ إلى الله عَزّ وجل، قبْلَ كلِّ شيء، وأهَمُّ منْ كُلِّ شيء.. فلْنستمعْ إليه كيفَ كانَتْ إجابتُه:

يقولُ الله تعالى: **﴿قال لا يأتِيكُما طعامٌ تُرزَقَانِه إلا نبأتُكما بتأويلهِ قبلَ أنْ يأتِيَكُما﴾**.

في هذا الشطْرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: في الإعراضِ الكُليِّ عنِ الإجابة عنِ السُّؤال وحتى عن الإشارةِ إليه، حتى لَيُخَيّلَ للمستمعِ، وكأنه لم يَسمعِ السؤالَ، أو لم يُلْقِ إليه بالاً. و هذا الأسلوبُ في التّخَاطُب، لا يُتْقِنهُ إلا القِلّةُ مِمّنْ يَمْتَلِكُونَ مَنهجيةَ إقناعٍ عالية، وقوةً في الشخصيةِ فائقة. فكان من حالهِ حينَ جوابِه:

أَنه لم يُؤخَذْ بالإطراءِ الحاصلِ في الآيةِ السابقة، وقد عَلِمْنَا أنه وقَرَ في قَلْبَيْهما أنه مِنَ المحسنين، لِمَا رَأَيا من حُسْنِ تَصَرُّفهِ ودَمَاثَةِ خُلُقِه.

وأنه عَرَفَ متى يبدأُ بالدعوةِ إلى الله تعالى، وفي أيِّ ظرفٍ يدعو. وقد كانَ بوُسْعِه فورَ آجتماعِه في السِجنِ بصاحبيه، أنْ يلقيَ بنفسه عليهم داعياً وَمُنْذِراً، ومتوَعِّداً. إلا أنّ الله تعالى، حَباهُ برباطةِ جأْشٍ وصَبْرٍ وأَناة.

وأنه رُغْمَ عِلْمِه أنّ أحدَ السائِلَيْنِ مقتولٌ لا محالة - على مَا سَنَرى في لاحقِ الآيات - لم يُشِرْ إلى هذا الأمرِ على الإطلاق، بل آستبقَاهُ إلى حينِ إجابتهِ عن تأويلِ الرُّؤيا، مِمّا يُشيرُ إلى مَنهجيةٍ فكريةٍ مُتناسِقة، تَنْطَلِقُ مِنْ مبدأ: لكلِ مَقَامٍ مَقَال، وعدمِ آستباقِ إعلامٍ على إعلام.

اللطيفة الثانية: في المبادرة التي قَامَ بها يوسفُ عليه السلام، لتأكيدِ

آمتلاكِه الجوابَ عَنْ سُؤالِهما، وتعزيزِ ثِقَتِهما بصحةِ الإجابةِ اللاحقة، وذلك بإعطاءِ الدليلِ الحِسيِّ الملموسِ بصدقِ حديثِهِ ومَتَانَةِ مُقُولتِه، وفي هذا تحدٍ مُباشِرٌ، تَظْهَرُ نتائجُه مباشرةً، ولا يقتضِي مِنَ المتلقِّي سَعَةَ علمٍ أَو قدراتٍ ذهنيةً عالية. كما أَنه لا يتَطلّبُ وسائلَ ماديةً غيرَ موجودةٍ في الظرفِ الذي هُمْ فيه، فلا يُوجَدُ في السِجنِ إلا قُضبانٌ وفراغ، ومن حينٍ لآخَر بعضُ الطعام، فإذا بيوسفَ عليه السلام، يتناولُ الجُزءَ المتحرّكَ من مجملِ ثوابتِ السِجن، أي حضورِ الطعام، ليكونَ مفتاحَ التحرُّكِ على ما سنَرى في لاحقِ الآيات.

اللطيفة الثالثة: في قولِهِ: ﴿تُرْزَقَانِهِ﴾ الواقعُ أنّ المعنى في الآيةِ يكتملُ دونَ ذِكْرِ هذه الكلمة كسماعنا: قال لا يأْتِيكُما طعامٌ إلا نَبّأْتُكُما بتأويلِهِ قبلَ أنْ يأتِيَكُما لكنّ وُرودَ كلمةِ تُرزقَانِه تعطي المعنى المقصودَ مِنْ كلامِ يوسفَ عليه السلام، أبعاداً أَعلى وأَرْقَى:

فحين نسمعُ كلمةَ، رِزْق وآرْتِزَاقَ، يتجه بنا الفكرُ مباشرةً إلى فضلِ الله تعالى علينا، فيما حَصَّلْنا، من مأْكلٍ أو مشربٍ أو مال..

وحين أوردَ كلمةَ تُرْزَقَانِه في مَعْرِضِ حديثِهِ، جعلَ المعنى أبلغَ مِنْ مُجرّدِ الإخبارِ عَنْ وصولِ الطعام، وجعلَ أُسلوبَ الكلامِ يحملُ نَفْحَةً غيبيةً، تمهيداً، لحديثِ الدعوةِ الذي سيلي.

اللطيفة الرابعة: في هذا الشطرِ منَ الآية، أَننا وَمَع هذه الكلمات، نرى يوسفَ عليه السلام، يَفتتحُ المرحلةَ الجديدةَ والأَهمّ في حياتِهِ، ألا وهي التعبير الخارجي للملأ عن نبوته، فمنذ بداية السورة وحتى وصلنا إلى هذه الآية، لم تتجاوزْ أَفعالُ وأقوالُ يوسفَ عليه السلام الحركةَ العادِيةَ للبَشَرِ العاديين، مع تَفُوقٍ في الفكرِ والسلوكِ عايناه. وها هو ذا الآن، وقد أَذِنَ له الرحمنُ بالكلام، يبدأُ الدعوةَ إلى الحق، مِنْ أَوْضعِ مكانٍ على وَجْهِ الأَرض، ولم يَجِدْ غَضاضةً في ذلك وتلك صفةً أَخرى على الداعيةِ أَنْ يقتديَ بها، أَلا وهي التّواضُع.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**ذلكُما ممّا عَلَّمني ربِّي إنِي تَركْتُ مِلَّةَ قومٍ لا يُؤمنونَ بالله وهم بالآخرةِ هم كافرون**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: فيما نراه من تبرؤٍ سريعٍ منَ الحولِ والطَوْلِ إلى حولِ الله تعالى وقوتِه: فلقد يخامِرُ العُجْبُ أَحدَنا إذا ما أَنجزَ أَمامَ مُشاهِديه عملاً يَرَوْنَهُ عظيماً أَو باهراً، وكثيراً ما يَعْزُوهُ إلى نفسِه فيدَّعِي العِلَم والمعرفةَ والقوةَ والذَكَاء لكنّ يوسفَ عليه السلام، لم ينسُبْ عِلْمَهُ بما يُرْزَقُهُ السجينان لنفسه، لبلوغِ مَقام عالٍ، قد يُفيدُه لاحقاً، مع أنّ القبولُ كان حاضراً مُسبّقاً لدى السجينين، حينَ قالا: ﴿**إنا نَراكَ من المحسنين**﴾.

ذلك لأن يوسفَ عليه السلام، كغيرِه من الأنبياء، صلواتُ الله عليهم قد وَجَبَتْ في حقهِ الامانة، واستحالتْ في حقه الخيانة، فقال: ﴿**ذلكما ممّا عَلَّمني ربِّي**﴾.

اللطيفة الثانية: في الوقوفِ عندَ كلمةِ ﴿**ذلكُما**﴾، لكي نتعلَّمَ من يوسفَ عليه السلام أُسلوبَ خِطابِ الداعية: ففي إيراد اسم الإشارةِ، مضافاً إليه ضميرُ المثنّى العائدُ لهما، إشراكٌ لهما في مضمونِ الحديثِ الذي يَسُوقُه، فهو لا يُلْقي خِطاباً مُترّفعاً مُتَعالياً، بل يَجْعلُهما في صميم كلامِ الدعوة، حتى تطمئِنّ نفوسُهما بأنهما مَعْنِيّانِ مباشرةً بالحديث، رُغْمَ أنه لا يُجيبُ عن تساؤُلِهما. . وهذا الأسلوبُ يَنْجَحُ تماماً حين يَتبَنّى المسؤولُ قضيةَ السائل، وكأَنها قضيتُه، فتقعُ الطُمأْنينَةُ في نفسِ السائلِ، حين يَأْتِيه الجواب.

اللطيفة الثالثة: في قولِه: ﴿**ممّا عَلّمني ربِّي**﴾، ومما تُفيدُ التبعيض، فهو يشُيرُ بهذا القولِ إلى أَنَّ الله تعالى، قد عَلَّمَهُ علوماً كثيرةً أُخرى. وأَنَّ ما تَروْنَهُ ليسَ إلا بعضَ هذه العلوم، فإذا كانَ هذا العلمُ قد أَدْهَشَ السامِعين، فهو يُحضِّرُ في نفوسِهم مكانةً أعلى حين يعلمونَ أنّ لديه مِنَ العلومِ الربانيةِ الأُخرى، ما يُوازي أو يفوقُ هذا العلم.

اللطيفة الرابعة: في إدراكِنا لقوةِ الإيجازِ في كلامِ يوسفَ عليه السلام، حين اختصرَ مُقوِّماتِ الإيمانِ الأساسيةَ المطلوبةَ من كُلِّ إنسانٍ، حتى يستحِقّ لقبَ مؤمن، ألا وهي: إيمانُ المبدأ، وإيمانُ المَعَاد، أي: الإيمانُ بالله تعالى رباً أوْحداً أوْجَدَ المخلوقاتِ، وأنزلَ لهمُ الشرائعَ.. والإيمانُ باليومَ الآخر، تصديقاً وتأكيداً لعدلِ الله تعالى، ومَنْ تأمّلَ في القرآنِ الكريم، وتَفكّرَ في مضمونِ دعوةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الكرام، لوجدَ أنّ المقصَود منْ إرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكتب، هو دعوةُ الخَلْقِ إلى الإقرارِ بالتوحيد، وبالمبدأ والمَعَاد، فإذا بنا نَسْمعُ مأْخَذَ يوسفَ عليه السلام، على أهل زمانِه، أنهم ﴿**قومٌ لا يؤمنونَ بالله وهُمْ بالآخرةِ هم كافرون**﴾.

وإذا ما أردْنا أنْ نَختَمَ تأملنا في هذه الآية، باستخلاصِ الإشاراتِ البليغةِ التي تَعَلّمْنَاها مِن يوسفَ عليه السلام، حولَ مُواصفاتِ الداعية الجيِّدِ، نقول:

➤هو الذي وَقَرَ الإيمانُ العميقُ في قلبه، فتبرأَ من حولِه وقُوّتِه إلى حول الله العظيم وقُوّتِه.

➤وهو الذي لم يُؤخَذْ بالإطراءِ والثناءِ أثناءَ دعوتِه وتَنَبّه إلى مزالقِ الكِبْرِ والرِفعةِ والعُلُو التي تتربَّصُ به عندَ كُلِّ زاويةٍ ومُفتَرق.

➤وهو الذي يعرفُ بماذا يُجيبُ وكيفَ يُجيبُ ومتى يُجيبُ عن التساؤلات، بعدَ دراسةِ نفسيةِ المستمعِ والمتلّقي.

➤وهو الذي يُشْرِكُ المستمعَ في صُلْبِ حديثه، ويجعلُه يتفاعَلُ مَعَ دعوتِهِ، ويَنْزِلُ إلى حيثُ هو، في بيتِه ومحيطِهِ ويُخاطِبُه باللغة التي يَفْهَمُها، وبالأُسلوبِ الذي يُؤَثرُ فيه ويُقْنِعُه.

➤وهو الذي يَمْلِكُ الجرأةَ في الحق، فلا يَسْتحِي أَنْ يُظْهِرَ قوةَ إيمانِه، لأنّ هذه القوة هي التي ستخترقُ أسماعَ وأذهانَ وقلوبَ مستمعِيه.

➢وهو الذي يُطَبِّقُ على نفسِه أَخلاق الدعوة، حتى تُصَدِّقَ تصرفاتُه أَقوالَه، فتكونَ بذاتِها قوةَ دَفْعٍ صامتةٍ تُؤَازِرُ الكلمةَ وتدعَمُها.

➢وهو الذي يتسلّح بقوةِ العِلْمِ والمنطقِ السليم، وقوةِ الحُجةِ، وصَلابةِ الفِكر ومتانَةِ العقيدة.

➢وهو الذي يتحلّى بالهدوءِ والاتزان، وبُعْدِ النّظَر، والتدَّرُّجِ والرِفْقِ والرأْفَةِ والتسامحُ، وقَبولِ الانتقادِ والتحقُّقِ منه، ومراجعةِ النفسِ في كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ الدعوة.

➢وهو الذي يكونُ قريباً مِنَ الله تعالى، فَيُراقبُه في السرِ والعلن ويَعْرِفُ أنَّ الله تعالى معه ما دَامَ له مُخْلِصاً.

مواطن الإسترشاد بالآية في حياتنا اليومية:

١ - لإعطاء مواصفات الداعية الناجح الجيد، وذلك بإيراد كل المواصفات التي تم استنتاجها من مضون الآية الكريمة، والتعمق فيها، وإيضاحها، ثم إعطاء الأمثلة عليها وحض الداعية على انتهاجها أساساً ينطلق فيه في بناء شخصيته الدعوية بتصويب سلوكه أولاً وتهذيب نفسه وتعليمها وتثقيفها، ثم دراسة المجتمع الذي سيدعو فيه، ثم التعرف إلى احتياجات ومواصفات الأشخاص الذي سيدعوهم، مع تدريب نفسه على احتمال الأذى حال حصوله، وتوقع حصوله، والتحلي بالصبر والأناة وتفريغ القلب من الشحناء والبغضاء، والتحرق القلبي لوصول الهداية إلى المدعوين.

٢ - للدلالة على وجوب الجهر بالحق عند الإستطاعة، وتحين الفرص المناسبة لذلك، وعدم ترك هذا الجهد للصدف، إذ أن الفرص قد لا تتكرر ثانية بسهولة.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٣]

نتابعُ أخي المؤمن، مَع هاتين الآيتين، سَماعَ دَعوةِ يوسفَ عليه السلام صاحِبيهِ في السِجن إلى الإيمان بالله تعالى، بعد أنْ كانا قد وَجّهَا إليه سؤالاً عن تأويلِ رُؤْياهُما، وهما في شَغَفٍ شديدٍ لاَستماعِ تعبيرِه للرؤيا، إلاّ أنه آثَر أنْ يَدْعُوَهُما إلى الله تعالى، قَبْلَ أنْ يجيبَهُما لأنها المناسبةُ الأفضلُ للدعوةِ قبلَ اشتغالِهما بما سيسمعانِ مِنْ أَخبارٍ تُحَدِّدُ مُسْتَقْبلَهما.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحٰق ويعقوب﴾**.

في هذا الشطرِ من الآية، لطيفتان اثنتان:

الأولى: لُغوية فالمألوفُ في الترتيبِ عندَ ذِكْرِ الآباء، أنْ يُذكَرَ أولاً، ألأَبُ، ثم الجَدُّ، ثم الجَدُّ الأَعلى وهكذا.

إلا أَنّ الآيةَ اعتمدتْ أَسلوبَ الاَطراد، أي البدءَ بالتّعْدَادِ مِنَ الجَدِّ الأَعلى، ثم الجدِّ ثم الأب، وذلك تنبيهاً إلى أَنْ المقصودَ ليس الأَشخاصَ بعينهِم، بصفتِهِمُ البشريةِ المعتادة، بل ذَكَرَهُم ليذكُرَ مِلّتَهُمْ أي الإِسلام، التي اتبعوها، فبدأَ بصاحبِ المِلة، ثم بِمَنْ أَخَذَها عنه أولاً فأوّلَ على الترتيب، وهكذا قُدِّمَ إبراهيمُ عليه السلامُ لقصدِ صِفةِ الرسالةِ التي يَحْمِلُ، وفي هذا جماليةٌ لغويةٌ لا تُدَانى.

اللطيفة الثانية: في هذا الشطِر منَ الآية، حين نستشعرُ الأَدبَ وحِسّ الوفاءِ عندَ يوسفَ عليه السلام: فلم يَكْتَفِ بذكرِ صاحبِ المِلَّةِ الأَوّل، جدِّه الأَعلى، إبراهيمَ عليه السلام، كما أنه لم يكتفِ بذِكْرِ أبيهِ يعقوبَ عليه السلام ـ وغالبُ طبعِ الناسِ ذكرُ آبائِهمُ المباشرين ـ ولم يكتفِ بذكرِ هذين العَلَمَيْنِ الأَساسيين، بل أعطى كُلَّ واحدٍ من آبائهِ حقَّه على الترتيبِ الذي يُنَاسِبُهم جميعاً.

ثم تتابعُ الآية: **﴿ما كانَ لنا أنْ نُشرِكَ بالله من شيء﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لتركيز يوسفَ عليه السلام، على مضمونِ الفِكرةِ الأَساسيةِ التي يَعْرِضُها على سامِعيه. وهي أَساسُ دعوةِ الرُّسُلِ جميعاً، أي التوحيدِ المطلقِ لله تعالى: ففي الآيةِ السابقةِ، أَشارَ إلى الإيمانِ بالله تعالى، ولقد عَلِمْنَا أنّ أَهَل مصرَ في ذلك الزمان، كانوا يعرفونَ الله تعالى، ولكنّهم كانوا يُشركونَ به، فإذا بيوسفَ عليه السلام، وبخطابٍ وجيزٍ لا يَتعدَّى الكلمات، يَذْكُر معنى الإيمان، ثم يُؤكِّدُ عليه بتنزيهِ الله تعالى عنِ الشرك، وإبرازِ هذه الفِكرةِ، وكأنها الوحيدةُ التي يُريدُ إيصالَها لسامِعيه، وهذه واحدةٌ من مُقَوِّماتِ صِحَةِ الدعوةِ إلى الله تعالى.

اللطيفة الثانية: في قولِه: **﴿مِنْ شيء﴾** وهي أَبْلَغُ مِنْ قولِنا: ما كان لنا أَنْ نُشرِكَ بالله شيئاً، فجاءَتْ **﴿مِنْ﴾** للتأكيدِ على المعنى، وجاءَتْ للنفيِ المُطْلَق، فيُحَقِّقُ بذلكَ المعنى المقصودَ منَ الوحدانيةِ المطلقةِ لله تعالى، بالأُلوهيةِ والربوبية، وعلى هذا قامتِ الدنيا، وعلى هذا سيقومُ الحسابُ.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿ذلكَ مِنْ فضلِ الله علينا وعلى الناس ولكنّ أَكْثَر الناسِ لا يشكرون﴾**.

في هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تفصيلِ يوسفَ عليه السلام، بين فضلِ الله تعالى على الأنبياءِ والرسلِ الكِرام، وفضلِه على الناسِ عامة:

ففضلُ الله تعالى على المرسلين: أنه ٱخْتَارُهمْ لِما حَباهُمْ مِنْ خَصائصَ مميزةٍ من بينِ الناس، وٱخْتَصّهُم بمهمةٍ كبيرةٍ وصَعْبة، ألا وهي هِدايةُ الخَلْقِ إِلى طريقِ الحق.

- وفضلُه عليهم أَيضاً، أنه عَصَمَهُمْ مِنَ الوقوعِ في الشركِ والظُلْمِ والكَبائر.
- وفضلُه عليهم، أنه أَعطاهُمْ مِنَ الآياتِ والمعجزاتِ ما يَفُوقُ قُدرةَ البشرِ العاديين، وذلك تَأْييداً لهم للحُجةِ والإِقناع.
- وفضلُه عليهم، أَنه حَماهُمْ مِنْ هَمَزاتِ الشياطين.

وهذا بعضٌ من كثير، فلذلك قالَ يوسفُ عليه السلام: ﴿**ذلك مِنْ فضلِ الله علينا**﴾ للتبعيض.

ومن فضلِ الله تعالى على الناسِ كافة:

أنه خلقَهم فأحسنَ صُورَهم، ووهبَهمْ العقلَ والإِدراكَ والبصيرةَ والحواسّ.

وأنه مَيّزَهُمْ عن بقيةِ المخلوقات، وجعلَهم خُلفاءَ في الأَرض.

وأنه تَكَفَّلَ برزْقِهم، بَرِّهِم، وفَاجِرِهِم.

وأنه مَكَّنهم في الأَرض، وسلَّطُهمْ عليها، وَوَضَعَ لهم أَسبابَ ٱستغلالِها.

وأَنه غَرَسَ فيهِم المشاعرَ والعواطف، فهم يتقلَّبُونَ بينَ سعادةٍ وحُبور، وحزنٍ وغَضب، فيكونَ للحياةِ معنىً ومَذاقٌ.

وأهمُّ من ذلكَ كُلِّه، أنه عن طريق الرسلِ عَرَّفَهُمْ بنفسِه، وعرَّفَهم فضلَهُ

عليهم، ومكّنَهُم مِنْ حُبِّه، وكافأَ مَنْ أَحبه في الدنيا بالطُّمأْنينةِ والسعادِة، وفي الآخرةِ بالخلودِ في جنّةِ النعيم.

إلاّ أَنهم، ومَعَ كلِّ هذا الفضل، جَحَدُوا نِعَمَ الله تعالى عليهم، وطَغَوا في الأَرض، فكانَ قولُ يوسفَ عليه السلام: **﴿ولكنّ أَكْثَر الناسِ لا يشكرون﴾**.

اللطيفة الثانية: في هذا الشطرِ منَ الآية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ **﴿يشكرون﴾**.

وهي ذاتُ مدلولٍ بليغ، وينبغي لنا أَنْ نُعطيه حَقّه. فالشكرُ يكونُ في الأَصل منَ العبدِ للخالِق، وهو يَحْملُ معنى العِرفانِ بالفضل، إلا أَنّ الله سبحانه وتعالى، شاءَ أَنْ يُكْرِمَ بني آدم أَكْثَر فأَكْثَر، فإذا بنا نقرأُ في سورةِ الإِسراء، الآية التاسعةَ عَشَرة: **﴿أولئك كان سعيُهم مشكوراً﴾**.

أي إنّ الله تعالى يَشْكُرُ لهم حُسْنَ سَعْيِهم فيما قامُوا به من صالحِ العملِ في الدنيا، وهذا أيضاً من فضلِ الله العميمِ على الناس.

ثم يتابعُ يوسفُ عليه السلامُ في الآيةِ التالية: **﴿يا صَاحِبَي السِجن أَأَرْبابٌ متفرقون خيرٌ أَمِ الله الواحدُ القَّهار﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في أنتقالِ الأُسلوبِ الخَطابِيِّ مِنَ السردِ إِلى المحاورة، مَا يستدعي تفاعُلَ المستمعِ معَ موضوعِ الخطاب، وقد قامَ يوسفُ عليه السلامُ بإِعمالِ كلِّ عناصرِ الحوارِ في الإِقناع:

فناداهُما بصورةٍ مُحبَّبةٍ حينَ قال: **﴿يا صَاحِبَي السِجن﴾**.

وفي واقِعهُم الحَالي، السِجنُ مكانٌ تَصْعُبُ فيه المُفاضَلة، وهو دارُ الأحزانِ ومدارُ الأَشْجَانِ التي تصفو فيها المودّة.

وٱعتمدَ أُسلوبَ الاَستفهامِ الإنكاريِّ، تدليلاً على بَشاعةِ الجُرْمِ ٱلمُرْتَكَبِ بالإشراك.

وٱعتمدَ ٱسلوبَ المُفاضلة، حين وَضَعَ الوَحدانيةَ أَمامَ نَاظِرَيْهما، ووَضَعَ الإشراكَ في المقابل، ليُظْهِرَ الفرقَ الشاسعَ بينهما.

وٱعتمدَ أسلوبَ التقديمِ والتأخيرِ، فَقدَّمَ واقعَ حالِهم، وأَخَّرَ ما يدعُوهم إليه.

وٱعتمدَ أُسلوبَ المَجاراةِ في التّسمية، فَسمّى ما يعبدونَ مِنَ الأَوثانِ أرباباً، وما هي بالأَرباب، مَنْعاً مِنْ نفورِهم قبلَ عَرْضِ المُفَاضَلةِ على عُقولِهم.

فسبحانَ الله العظيمِ الذي أَلْهَمَ نَبِيَّهُ حِكْمَةً وحُنْكَةً وبلاغةً وفَصاحةً، نتعلَّمُ منها أُصولَ الدعوةِ وأَبوابَها.

اللطيفة الثانية: في وقُوفِنا عندَ ٱختيارِ صفاتِ الله تعالى، في مَعْرِضِ الدعوةِ إلى الهداية. فقال: **﴿أَمِ الله الواحدُ القهّار﴾**.

وفي هذا، إعمالٌ لمبدأ: لكلِ مقامٍ مقال، فوجدَ يوسفُ عليه السلامُ أَنّ الموقفَ يَسْتَوجِبُ إظهارَ عَظمةِ الله تعالى وقُوّتَه، أَمامَ ضَعْفِ الأَوثانِ ومواضيعِ الشِرْكِ الأُخرى، فجاءتْ صفةُ القَهّارِ، بما تحمِلُه منْ رهبةٍ وإنذارٍ، لتتوافَقَ مَعَ موضوعِ الحديث.

اللطيفة الثالثة: في ٱسْتِنكَارِ حالِ الاَزدارءِ التي أرادَ يوسفُ عليه السلامُ نَقْلَها إلى صاحبي السِجن، بصورةٍ ضِمنيةٍ، مخاطباً فيها مَلَكَاتِ المنطقِ عندهما، مُتجاوزاً الجوارحَ والثوابت، مُحْدِثاً ما يُسمَّى بـ"فعلِ الصَدْمة" حين أَنْكَر عليهما بالكُليّةِ كلّ المعتقدِ السائدِ في زمانِهما، دونَ مساومةٍ أو تلطيفٍ، ولا عَجَب، فلهذا جاءَتِ الرُّسل، ولهذا قامتِ الدنيا، وعلى هذا سيقومُ الحسابُ، فكُلُّ ما عدا التوحيدِ هَباء.

مواطن الإسترشاد بالأيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الدين عند الله تعالى هو دين واحد، وهو دين الإسلام. وإبراهيم عليه السلام هو الذي سمانا مسلمين، وكل الأنبياء والرسل الكرام إنما جاؤوا لتبليغ دعوة الإسلام، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، من ذريته إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، ومن ذريته أيضاً إسماعيل عليه السلام، وسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فيكون الدين عند الله تعالى واحد، وهو دين الإسلام.

٢ - للدلالة على جواز محاورة الكافرين والمشركين بالحسنى دون مجادلة أو استفزاز أو تسفيه، وذلك بإظهار علو التوحيد على الكفر والإشتراك، وجعل صفة التوحيد لله تعالى هي محور الحوار.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٤]

هذه الآيةُ أخي المؤمن هي نهايةُ الفصلِ الأولِ مِنْ حديثِ يوسفَ عليه السلام، قَبْلَ أنْ يُجيبَ السائِلينَ عَنْ تَفْسِير رُؤْياهُما، وقد أَطْلَقَ فيها المبدأَ العامَّ الذي اصطفاهُ الله تعالى نبياً ورسولاً من أجل تبليغه ألا وهو: توحيدُ الله تعالى، وإلاقرارُ بأُلوهيتِهِ المطلقة، ولقد جاء هذا الإعلانُ في ذُروةِ انشدادِ المستَمِعين إلى حديثِهِ، تأكيداً على إتقانه فنّ المُخاطبَة في أرقى أساليبِهِ.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿ما تَعبدُونَ مِنْ دونِه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾**.

في هذا الشطرِ مَن الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تَعميمِ الإشارةِ اللفظِيةِ إلى عمُومِ أهلِ مِصْرَ رُغْمَ أنَّ المُخاطبين اثنان، وفي هذا تأكيدٌ على عمومِ الخِطابِ إلى كُلِّ الخليقةِ الذين اتخَذُوا مِنْ دُونِ الله أرباباً، أو أشركوا بالله، وأنه إذا ما خَاطَبهُما فإنه يُخاطبُ مَنْ خَلْفَهُما مِنَ النّاس، فهو بذلك يَتجاوزُ مكانَ الحوارِ، أي السِجن، وزَمانِه إلى أيِّ مكانٍ في الدنيا، وإلى كُلِّ العصورِ وألأزمنة، فيقولُ لهم جميعاً: **﴿ما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِه إلا أسماءً سَمّيتموها أَنتمْ وآباؤكم﴾**.

اللطيفة الثانية: في قوةِ الصورةِ الواردة في لَفْظِ عِبادتِهم بالكُليّة، وإظهارِ سفَاهَةِ مُعْتَقدِهم دُفعةً واحدة، دونَ مُحاباةٍ أو تلطيف، معَ ما تَحْمِلُه هذه الكلماتُ مِنْ معاني القوةِ والعِزَّةِ والمَنَعَةِ: إنه لا يَعْبأُ بِمشَاعِرِهم في هذه اللحظات، ولا يستجلبُ وُدَّهُم ولا تَعَاطُفَهم معه، إنه لا يَستجيبُ في هذه اللّحظاتِ إلا إلى نداءِ رَبِّهِ بوجوبِ التبليغ عنه أسبابَ وُجودِ هؤلاءِ الناسِ على هذه الأرض، وذلك بهدفِ إحداثِ مَا نُسمِّيه اليومَ بالصّدْمَةِ الإيجابيةِ، وسنجدُ في هذه الآية، تسَلْسُلاً في الأدلةِ المقنعةِ الدالة على سَفَاهَةِ رأيِهم، وتفَاهَةِ مُعْتَقَدِهم، ما يَستحقُّ الدراسة بتمعُّنٍ لاستخلاصِ مَبادىءِ دَحْضِ حجج المشرِكين.

اللطيفة الثالثة: في جماليةِ اختيارِ الصفةِ المناسبةِ لما يَعْبُدونَ، إذ قال: **﴿إلا أسماء سَمّيتُمُوها﴾**، وحينَ نَسْمَعُ هذا الوصْفَ، تَتَّضِحُ لنا الحقائقُ التالية:

فهو بذلك، يَنْسِفُها نَسْفاً،ويُحَوِّلُها إلى خَيالٍ مِنْ صُنْعِ الخَيال، وينزِعُ عَنها أيةَ قيمةٍ، فلا معنى لها ولا وُجود.

وهو يتَحدّاهُم في صَراحةِ عبارتِه وجُرأتِه على وَصْفِها بمجردِ الأسماءِ لا غير، بلا وجودٍ ولا نُفوذ، حتى يَنْقُلَ إليهم وجوبَ التساؤُلِ عَن صِحَةِ وَصْفَهِ لها.

وهو يَزْرَعُ الشَكَّ والحَيْرَةَ في نفوسِهم حين يَضَعُهم أمامَ حقيقةِ هشَاشَةِ عِبادتِهم للاشيء، ويُعَبِّرُ بذلك بصورةٍ صارخةٍ مُدَوِّية عن خِفَّةِ عُقولِهم حينَ اقتنعوا بعبادةِ أسماءٍ واهية.

اللطيفة الرابعة: لُغوية، في تَنَاسُقِ العِبارة، حينَ نَسْمعُ ﴿**أسماءً سميتمُوها**﴾ رُغْمَ أهميةِ المضمون، إلا أنَّ أهميةَ الموضوعِ لا تَمْنَعُ مِنْ تمتُّعِ الأُذُنِ بجمالِ العبارة، وتلك مِيزةُ ألفاظِ القرآن الكريم في إمتاعِ المؤمنين مع إكرامِهم بالهِداية.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**ما أنزلَ الله بها مِنْ سُلْطَان**﴾.

في هذا الشَطْرِ منَ الآية، لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في دِقَّةِ الإقناع الخفيِّ غيرِ المباشر التي اعتمدَها يوسفُ عليه السلام، في تأكيد تَفَرُّدِ الله تعالى بالألوهيةِ المُطْلَقَة، وذلك بالإشارةِ البديهيةِ إلى أنه لا حجّة ولا مصدَر يقيني للعلم، إلا ما كان من عند الله تعالى مما جاءت به الرسُل، أو عقل اهتدى بهُدَى الله.

اللطيفة الثانية: في مُلاحظةِ هذا التدرُّج الذي اعتمدَهُ يوسفُ عليه السلام في إيصالِ فِكرةِ عبثيةِ مُعْتَقِدهم. وذلك على ثلاثِ مراحل:

المرحلة الأولى: في إظهارِ أنها لا تعدو وكَوْنَها أسماءً من غيرِ مسمَّياتٍ في قوله: ﴿**إن هي إلا أسماء..**﴾

المرحلة الثانية: في عزْوِ تسميتها إليهم وإلى آبائهم بقوله: ﴿**سميتموها أنتم وآباؤكم**﴾.

المرحلة الثالثة: في إظهار أنه ليس لديهم دليلٌ أو حُجّةٌ أو برهانٌ عقليٌ أو نَقْليٌ من مَصْدَرٍ إلهي على صحة عبادَتهم لها وذلك بقوله: ﴿**ما أنزل الله بها من سلطان**﴾.

فلمّا اجتمعت هذه الدرجاتُ أدْرَكْنَا أنها لا شيء على الإطلاق..

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**إنِ الحُكْمُ إلا لله أمَرَ ألا تعْبُدوا إلا إيَّاه**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في تصاعُدِ وتيرةِ الإعلامِ عَنْ حقيقةِ الوُجودِ البَشريِّ على ظهْرِ الأرض حتى الوصولِ إلى الذُّروةِ في إطلاقِ المُسَلَّمةِ الكُلِّيةِ التي لا تحتاجُ إلى زَمانٍ ولا مكان، وتَنْطَبِقُ على كلِّ زمانٍ ومكان، وعليها قَامَت الحياةُ الدنيا وبها نادَى جميعُ الأنبياءِ والمرسلين منذُ أنْ خلقَ الله تعالى الإنسان، وستبقى حتى يومِ الدِّين: هي الحقيقةَ الأَصح التي فيها أسبابُ النجاة، وقِوامُ الفَلاحِ والنّجاحُ، فجاءتْ بعدَ تصَاعُدٍ تَدَرُّجيٍّ بديعٍ، أوصَلَنا إلى تقديرِ أهميةِ هذه القاعدةِ الأساسية.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ المعنى الشاملِ الذي تَضَمَّنَهُ قولُ الله تعالى: ﴿**إنِ الحُكْمُ إلا لله**﴾، فإذا بنا نفهمُ:

أنَّ الله تعالى هو المُوجِدُ للكل، المالكُ لأمرِهِم، يفعلُ بهم ما يشاء، لا مُعَقِّبَ لحُكْمِه.

وأنه تعالى له وَحْدَهُ مُوجِبُ العِبادةِ والطاعةِ فلا يَصحُّ التقرُّبُ إلا إليه، ولا يجوزُ السجودُ إلا له، ولا يُقْبَلُ عملٌ لم يُرَدْ به وَجْهُه، ولا يَقْبلُ وسطاءَ ولا أنداداً ولا شُركاءَ في التقُّربِ إليه.

وأنه تعالى إليه المآلُ والمَصير، فلا مَفَرَّ مِنْ لقائه، ولا سبيلَ إلى الخلاصِ

من وَقفَةِ يومٍ جامع، يجمعُ فيه الخلائقَ كُلَّها في صعيدٍ واحد، كلٌ يحملُ ما أعَدَّ لِنَفْسِه مِنَ الزاد، وما خابَ مَنْ أكْثَر مِنْ صالحِ الزّاد.

وأنه هو الذي يَحْكُمُ بينَ العبادِ يومَ الدِّين، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم، وهو الحكَمُ العَدْل الذي لا يَظْلِمُ مِثقالَ ذَرَةٍ في الأرضِ ولا في السماء.

وأنه هو الذي يُعطِي الجَزاء، فإمّا نعيمٌ مُقيم، وإما جَحيمٌ بِلا قرَار.

اللطيفة الثالثة: لُغوية، في مُلاحظةِ الصِيغةِ التي ورَدَتْ فيها الآيةُ الكريمةُ وهي صِيغةُ قُوّةٍ وجَزْم، رأينا فيها أداةَ الحَصْرِ **﴿إلا﴾** تَرِدُ ثلاثَ مراتٍ في آية واحدة:

الأولى في قوله تعالى: **﴿إلا أَسماءً سمّيتمُوها﴾**.

الثانيةُ في قولهِ تعالى: **﴿إنِ الحُكْمُ إلا لله﴾**.

الثالثة في قولهِ تعالى: **﴿إلا إيّاه﴾**.

وفي ذلك تحفيزٌ نَفْسِي لقارىءِ القرآن ومستمِعه، على إيلاءِ الآيةِ حَظّاً وافراً منَ الفَهْمِ والتدَبُّر.

ثم تَنْتَهي الآيةُ بقولِ الله تعالى: **﴿ذلكَ الدينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يعلمون﴾**.

وفي هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في هدوءِ وَتيرةِ الإعلام، باستخلاصِ المعاني بعدَ استحضارِ المباني للأذهان، وذلك بإيرادِ حَقيقتين اثنتين غيرِ مُتطابقتين:

الأولى: أنَّ الدِينَ عندَ الله الإسلام.

والثانية: أنّ أكثَر النَّاسِ لا يعلمونَ أينَ يكونُ صالحِهُم وخَلاصهُم.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عِندَ عمقِ المعنى الذي حَملَتْهُ كلمةُ: **﴿الدِّينِ القيم﴾** فنحن نَفْهَمُ منها:

أَنهُ الدينُ الثابتُ المستقيم، الذي لا عِوَجَ فيه.

وأنه المُقَوِّمُ المعَدِّلُ للأُمور، الذي يَمْنَعُها منَ الشَتاتِ والضّياع.

وأنه المُهيمنُ المشرِفُ على ألأَعمالِ والتصرفات، يَضَعُ لها أُسُسَها الصَحيحةَ المقبولة عندَ الله تعالى.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا للحقيقةِ الأكيدةِ الثابتة، التي وَرَدَتْ في نهايةِ الآية بقولِ الله تعالى: **﴿ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**، وفي هذا إعلامٌ عن حالِ أكثَرِ الناسِ في غَفْلَتِهم وذُهولِهم عنِ الدينِ القَيِّم، وأنَّ هذه الحقيقةَ ليستْ فقط في زمنِ يوسفَ عليه السلام، بل كانتْ في الزمنِ الذي سَبَقَه، وتَكرَّرَت في الزمنِ الذي تلاه ولا تَزَالُ تتكرَّرُ على مَرِّ الأزمان، وتَعَاقُبِ العُصور: ولقد تَتملكُنا الدَهْشَةُ حينَ نتساءَلُ عن سببِ إعراضِ الناسِ عنِ الدِينِ الَقيِّم، تزولُ دهشتُنا حينَ نَسْمَعُ في القرآنِ الكريم تَوعُّد الشيطانِ الرجيم بني آدمَ بالغِوايةِ إذْ نقرأُ في سورةِ الأعراف: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: **﴿قال أنظرني إلى يومِ يُبْعَثونَ * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾**[1].

(١) [سورة الأعراف، الآية: ١٤- ١٧].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على متانة الدين القويم، وذلك بإيراد الآية بما تمثله من زخم قوي تحمله في ألفاظها، يعطي المسترشد بها قوة معنوية ولفظية عالية لا تجدها إطلاقاً في أقوال البشر أو دعواهم، وفيها من العزة والصلابة ما يجعلها تنطق وحدها على هزال الشرك والإلحاد.

٢ - للدلالة على أن أكثر الناس في كل العصور، هم في حال من الضياع والتيه، وهي تأتي جواباً عن تساؤل المتأمل في حال هذه الأمم الكثيرة الأعداد، التائهة عن درب الصواب، الغارقة في الضلال والضياع، في قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٥]

مع هاتين الآيتين يَنْتَهِي أخي المؤمن، هذا الفَصْلُ مِنْ حياةِ يوسفَ عليه السلام، يُوطِّدُ معه أُسُسَ المرحلةِ اللاحقة التي ستبدأُ بعدَ بضعِ سنوات، وسنَجِدُ في هاتين الآيتين مَزْجاً رائعاً في وَصْفِ خصائصِ النبوةِ والرسالةِ فيه معَ تَناغُم في وصفِ بشريتِهِ التي لا يخرجُ عنها، ونَتذَّوقُ عُذوبةَ القرآن الكريم في أُسلُوبِهِ اللُّغويِّ الفريدِ في القَصص.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿يا صَاحِبَي السجنِ أمَّا أحدُكما فيسقِي رَبَّهُ خمراً﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في العودة بعدَ الآيتينِ السالفتينِ المدويتين اللتينِ رأينا فيهما موقفاً جازماً من يوسفَ عليه السلام، بشأنِ إيضاحِ عقيدةِ التوحيدِ، حتى قارَبَ فيهما البِعادُ عنُ نزيلي السِجن في تَسْفِيهِ عِبادَتِهم، ما يُخَلِّفُ موقفاً مُتأزِّماً في الحوارِ بينهم إذا به يعودُ للاقترابِ مِنهما في افتتاحِ الآيةِ بقوله: **﴿يا صَاحِبَيِ السِجْنِ﴾**.

اللطيفة الثانية: في قوله: **﴿أَمّا أَحَدُكُما﴾** فنَرى الإيجازَ القرآنيّ وعُلُوّ اللغة المنتقاةِ عنِ التفصيلِ المألوفِ لدى الناسِ في السرد، ونحن نَفْهم من هذه العبارةِ:

أنَّ يوسفَ عليه السلام حينَ أعْطَى الحُكمَ في تأويلِ الرؤيا إنما ارتقى عن أشخاصِ السائِلينَ، ونأى في تفسيره عن ذَاتهما تعبيراً منه عن عدمِ التأَثُّرِ بما لهذا أو ذاك مِنْ خصائصَ فردية..

ونفهم أنّ يوسفَ عليه السلام إنما هو في هذه اللحظاتِ مُبَلِّغٌ عنْ رَبِّه في كلِّ كلمةٍ يقولُها، لأنّ فيها إعلاماً غيبياً يَفوقُ طاقةَ البشر، ولذلك نَلْحَظُ الثِقَةَ في العبارةِ، واليقينِ القَطْعِيِّ في الإبلاغِ بِمَعْزَلٍ عمّا سيَصدُرُ منه لاحقاً منْ تعليقٍ بعدَ التبليغ بعدَ انتهاءِ تأويلِ الرؤيا، حيثُ سيختلِفُ الأُسلوبُ وتختلفُ العِبارات.

اللطيفة الثالثة: في قوله: **﴿فيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً﴾** لقدِ استعملَ صيغةِ الغائبِ رُغمَ أنّ السائلَ قُبالتَه، ولم يَقُل له: أمَّا أنتَ فَتَسْقَى رَبَّكَ خَمْرا، وفي هذا تمامُ توكيدِ تجنُّبِ يوسفَ عليه السلام الإشارةَ إلى أحدهما بذاتهِ، فيما أورَدَ مِنَ التأويل، وهي خاصةٌ نادرةٌ في تصرُّفِ البشر، إلا منْ أُوتيَ حِكْمَةً وعِلْماً.

اللطيفة الرابعة: في أُسلوبِ التلميحِ دونَ التصريح في إعطاءِ القولِ الفَصْلِ

في مَصيرِ السائِلينَ، فلم يَقُلْ للأولِ أنتَ ناجٍ بلِ اكتفى بالإشارةِ إلى بعضِ مُسْتَتبعَاتِ النجاة، أي عودتهِ إلى مُزاولَةِ عَمَلِهِ، والسببُ في ذلك، إعمالُ التَناسُقِ بينَ هذا الإعلام، والإعلامِ الذي سيَليهِ عنْ مَصيرِ السائلِ الثاني، على ما سنَرى في لاحقِ الآية.

اللطيفة الخامسة: لُغوية: فحين نَسْمَعُ في القرآنِ الكريم عِبارَة: يَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً، للإشارةِ إلى سَيِّده: نَفْهَمُ مَدى سَعَةِ اللغةِ العربيةِ لاحتواءِ المعاني المُتعدِّدَةِ في اللفظِ الواحد، حتى السماحِ باستعمالِ كلمةِ رَبٌ للإشارةِ إلى السيد.

تقودُنا هذه المسألةُ إلى الإشارةِ إلى أَمرين اثنين:

الأول: أنّ على الخائضِ في اللغةِ العربية من غيرِ أهلها أنْ يعِيَ هذه المِيزةَ في لُغةِ القرآن الكريم، ولا يَتَجنّى بجهلِه على نُصوصِ أهْلِها: عَنَيْتُ بهم أولئكَ المستشرقِينَ الذين عاثُوا في تُراثِنا نخراً وحَفْرا، وشَوَّهُوا الحقائقَ وزَيفُوا التاريخ، وإذا بهِم يَتصدّرونَ لِينقُلُوا إلينا تُراثَنَا كما فَهمُوه هم.

الثاني: وجوبُ الرِفْقِ عندَ الناقدين، في أحكامِهم على أصحابِ الأدبِ واللسان، قبلَ الحُكْمِ عليهم بالشّطَطِ أو الكُفْر، إستهداءً بِهَدْي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «**إلتمس لأخيكَ عُذْراً**» فكَمْ منَ الألفاظِ التي اتُهِمَ أصحابُها ظُلماً، بسببِ عدمِ فَهْمِ مقاصدِهم في توَسُّعِهم في استعمالاتِ اللغة.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وأمّا الآخرُ فيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ منْ رأسِه﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في هذا الزَّخمِ التَّصْوِيريِّ البديع الذي يَزْخَرُ به هذا الشطر، فنفهمُ من هذه الكلماتِ الوجيزة:

أنَّ مصيرَ الخَبَّازِ يتحدَّدُ هذه اللحظاتِ في موقفِ صَعْبٍ على السائلِ والمسؤول.

وأنَّ يوسفَ عليه السلام، لم يَتَردَّدْ في إيرادِ الحقيقةِ المُرَّة، وهو يُعْلِنُها وجهاً لوجه، أمامَ الباحثِ عن تعبيرِ رُؤياه.

وأنه دونَ أن يتلفَّظَ بكلمةِ الموت، أَعطى الموتَ بُعداً تصويراً حين حملَ القارىء والمستمعَ على تصَوُّرِ المصيرِ الذي سَيؤُولُ إليه الخَبَّاز.

وأنه مصيرٌ واضحُ المعالم، مُحَدَّدٌ بالتفصيل: سيكونُ صَلْباً لا يُرجَى معه فكاكاً، والتدليلُ على حَتْمِيةِ الموتِ هو التفصيلُ الآخرَ الذي تلاه حين صَوَّرَ كيفَ أنَّ الطيرَ ستأْكُلُ مِنْ رأسِهِ.

اللطيفة الثانية: في تناسُقِ السِياقِ معَ ما جاءَ في الشَطْرِ السابق، حينَ تكلَّمَ يوسفُ عليه السلام، بصيغةِ الغائب في حديثِهِ مع الحاضر، نظراً لجسامةِ وخُطورةِ المعلومة المُعطاة، وذلك بهدفِ مَنْعِ الظَنِّ باستهدافِ الخَبَّازِ لشخْصِهِ في الحُكْم، وللتجَرُّدِ الكَامِلِ في نَقْلِ الخَبرِ عنْ ربِّ العالمين..

اللطيفة الثالثة: في تقديمِ خبرِ النجاةِ على خبرِ الهلاكِ وهذا من الأَدبِ الرفيعِ في المخاطبة، فلقد بَشَّرَ الساقي بنجاتِه أولاً، تناسُقاً مع طبيعةِ البشر في طَلبِ البِشْر.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان﴾**.

نشعرُ مع هذه الكلمات صعوبةَ الموقفِ وحَرَجهُ في آن: إنه تعبيرٌ عنِ افتراقٍ حتمي بعدَ هذه اللحظات، بين ناجٍ وهَالكٍ، وصعوبةُ الموقف تَنبعُ مِنْ أنهما صَدقاهُ مُسبَّقاً حين رأياه منْ المحسنين ولجآ إليه.

وكان في جوابه لهما: **﴿قُضِي الأمر﴾** دَلالةٌ على وَحْي.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وقال للذِي ظَنّ أنه ناجٍ منهما ٱذْكُرني عِنْدَ رَبِّك﴾.

في هذا الشطرِ الأولِ من الآيةِ الثانية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التحوُّل المباشِرِ في أقوالِ وأحوالِ يوسفَ عليه السلام من خِطابِه الأول، حينَ أبلغَ السَّائلينَ عِلماً غيبياً، نقَلَهُ باليقينِ القَطْعِيِّ عنِ الله تعالى، إلى خِطابِه الثاني، حينَ تَحدَّثَ بواقعِ حالِه البَشَريِّ إذْ أشارَ إلى سَجْنِه ظُلماً وعُدواناً، وهو يَسْعَى للخَلاصِ منْ هذا الظُلم، فنَرى أنَّ الوَتيرَة قد انخفضتْ، ولهجةَ الكلامِ قد تَغَيَّرَتْ.

وهو بذلك يوكِّدُ بَشَرِيَّتَه، مثْلُهُ في ذلكَ كمثَلِ كُلِّ الأنبياءِ والمُرْسَلين الذين ما انفكُّوا عنْ بشرِيّتِهم في حياتِهم ومعَاشِهِم، وآلامِهم ومُعاناتِهم.

اللطيفة الثانية: في احتمالِ الصيغةِ المُنْتقاةِ أكثَرَ مِنْ معنى، وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم، وهو يُعطي لآياتِ القرآنِ الكريم، غنىً واسعاً في التفسير.

ففي هذه الآية جاءت الصِيغة: ﴿وقال للذي ظَنّ أن ناجٍ مِنْهُما﴾.

قال بعضُ المفسرين: الذي ظَنّ هو يُوسفُ عليه السلام، وهنا على قولِ أكثر المفسرين بمعنى أيقَنْ، وعلى قولِ بعضِهم، تَوَقَّعَ واجتهَدَ..

وقال البعضُ الآخر: الذي ظَنّ هو الساقي مُحَدِّثُ يوسفَ عليه السلام، وهو مما يَقْبَلُهُ المعنى أيضاً.

فتَدَبَّرْ أخي المؤمن جَمَالَ ألفاظِ القرآن..

اللطيفة الثالثة: في استعمالِ صيغةِ اسم الفاعل الدّال على المُضَارِعة في قوله: ﴿أنه ناجٍ منهما﴾ بدلاً من قوله (أنه سينجُو منهما): الدالةِ على المستقبل لإفادةِ حَتمِيّةِ الوقوع.

فالله تعالى هو الذي قَضَى بنَجاتِه: فجاءَت العبارةُ على هذا النحوِ أثبَتَ وآكد.

وفي قوله تعالى: ﴿**اذكُرْني عندَ رَبِّك**﴾ لم يَرِد التفصيلُ لما هو مطلوبٌ أن يُذْكَرَ عندَ المَلِك، فاحتمل المعنَى أن يَذْكُرَهُ بِعلمِه ومَكَانته، كما احتملَ أن يَذْكُرَهُ بِمَظْلَمتهِ وما امتحُنَ به بغيرِ حق، أو يَذْكُرَهُ بجُملة ذلك.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**فأنسَاهُ الشيطانُ ذِكْرَ رَبِّه فَلَبِثَ في السجْنِ بِضْعَ سنين**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قوله تعالى: ﴿**فأنسَاهُ الشيطانُ**﴾ وفي هذا تنبيهٌ لنا إلى التصاقِ الشيطانِ الرجيم، بدخائلِ أُمورِنا، دقيقِ تَفصيلاتِها، وإيضاحٌ لنا أنَّ عزيمَتَهُ على الإضرارِ بنا لا تفْتَرُ، وحَضٌ لنا على وُجوبِ التنبُّهِ والحذرُ منه، بل مقاوَمَتُه والغَلَبَةُ عليه، بدوامِ ذِكْرِ الله تعالى، والمحافظةِ على حُسْنِ العلاقةِ معَ الله تعالى.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لاختلافِ الصِيغةِ في الآيةِ ذاتِها حين نَسْمَعُ أولاً: ﴿**أُذْكُرْني عندَ رَبِّكَ**﴾، ثم نسْمَعُ في آخرِ الآية: ﴿**فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾ وظاهرُ الحالِ اللغويِّ يستَوجِبُ قولَ: فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرِهُ عندَ رَبِّه.

ثم إنّ دائرة ما أنساه الشيطان، تتسِّعُ لتشملَ عِدّةَ أمورٍ منها:

- أنساهُ الشيطانَ الحديثَ عن يوسفَ عندَ الملك.
- وأنساهُ أهميةَ الحدَثِ الواقعِ بينهم هذه اللحظات في التبليغِ عَنْ نَجاتِهِ.
- وأنساهُ المِيزَة الكُبرى التي يَتَمتعُ بها يوسفُ عليه السلام في تأويلِ الرُّؤى.

والأمورُ السالفةُ الذِكْر مترابطةٌ فيما بينها، وكُلُّ واحدةٍ منها عندَ افتكارِها تَلْفِتُ الانتباهَ وتَحُضُّ على الحديثِ عَنْ يوسفَ في حَضْرةِ المَلك، إلا أنه قضاءُ الله تعالى، الذي يأخُذُ مَجراهُ في تَطَوُّرِ الأحداث.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿فلَبِثَ في السجْنِ بِضْعَ سنين﴾ وفي هذا تَعبيرٌ لُغويٌ جميل عن انتقالٍ زمنيٌ لطيف، في مجرَيات الأحداث، ما احتاجَ إلى كثيرِ كلام، ليَنْقُلَنَا معه إلى حِقْبةٍ جديدة، تبدأُ معها نِهايةُ الأحزانِ في حياةِ يوسفَ عليه السلام.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على بشرية الأنبياء والمرسلين في تأثرهم بما يتأثر به الناس من ألم وجور وتأذٍ من الظلم وحبس الحرية، والرغبة في التخلص من الظلم الواقع بهم.

٢ - للدلالة على شدة التصاق الشيطان بنا، في محاولته على الدوام إغواءنا والسعي لإيقاعنا في المهالك، وفرحه بما يصيبنا من تيه وضياع ومحاولاته الدؤوبة لإيقاعنا في المعاصي. وحري بنا أن نتنبه لوجوده ونترقبه ونقارعه ونقاومه، وذلك بدوام ذكر الله تعالى والمثابرة على الطاعات.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٦]

مع هاتينِ الآيتين تَنْتَقِلُ بنا الأحداثُ أخي المؤمن إلى فصلٍ جديدٍ من فصولِ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وكُنا قد تَرَكْنَاهُ في السجن، يقضي عُقوبة حَبْسِهِ ظُلماً ليُكَفِّرَ عن ذَنبٍ لم يَرْتكِبه، لم يُحاكَم ولم يُقضَ عليه بمدةٍ زمنيةٍ مُحَدَّدة. هكذا، وضعُوهُ ونَسُوه، وكم تَتَكَرَّرُ وتتَكَرَّرُ على مَرِّ العصورِ مأساةُ ظُلْمِ الإنسانِ للإنسانِ ثم يَمْضَونَ جَميعاً، وقد خابَ مَنَ حملَ ظُلْماً.

يقولُ الله تعالى: **﴿وقال المِلكُ إني أرى سَبْعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهُنَّ سَبْعٌ عِجاف﴾**.

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: **﴿وقالَ المِلك﴾** وهنا يكْمُنُ إعجازٌ تاريخيٌّ للقرآن الكريم: ففي حين يَرِدُ ذِكْرُ حُكّامِ مِصْرَ بِلَقَبِ فرعونَ في ستين (٦٠) آيةً في القرآن الكريم. يَرِدُ لَقَبُ حاكمِ مِصْرَ في ثلاثةِ مواضِعَ مِنْ سورةِ يوسف باسْمِ المَلِك، وتفسيره: أنّ يوسفَ عليه السلام، سكَنَ مِصْرَ في زمنِ الملوكِ الرُّعاة الهكسوس ولم يُعْرَفْ تاريخُ مِصْرَ واجتياحِ الملوكِ الرُّعاةِ لها، إلا بعدَ العثورِ على حَجَرِ رشيد الذي اكتَشَفَهُ الفرنسيون عام (١٧٩٩) ألفٍ وسبعمئةٍ وتسعةٍ وتسعين أثناءَ حملتِهم على مِصْر، وبعدَ دراسةِ أحدهم للُّغاتِ الإغريقية والقِبطيةِ والعربية مدةَ عشرين سنة، تَمَكَّنَ بعدَها من فكّ رموزِه مِمّا مَهَّدَ لمعرفةِ تاريخِ مِصر.

اللطيفة الثانية: في الانتقالِ السريعِ من مشهدِ يوسفَ عليه السلام في السِجْنِ معَ صَاحبِه وقد أمضَى الله تعالى أَمْرَه،وصَدَقَتْ رُؤيا يوسفَ عليه السلام، فخَرَجَ السّاقي، وصُلِبَ الخَبّاز، ثم مَرتْ أيامٌ طويلةٌ جاوزتِ السنوات، أفهمْتنَا الآيةُ الكريمةُ بالتلميح، دونَ صريحِ البيان مرورَها إلى أنْ آنَ أوانُ فِكَاكِ سَجْنِ يوسفَ عليه السلام، فجاءَتِ الآيةُ الكريمةُ لِتَضَعَنا مباشرةً في قلبِ

الحَدَث، هو يدور من جديدٍ في عالمِ الرُّؤى، وفي هذا الانتقال حمْلٌ للقارىءِ والمستمع على التفاعُلِ مع الأحداثِ مما يؤَمِّنُ له استمرارِ المتابعةِ وَمَنْعَ شَتَاتِ الذِهْنِ.

اللطيفة الثالثة: في عدمِ ذِكْرِ أنّ ما رأى الملكُ كان رُؤيا منامية فقد قال الملِك: ﴿**إني أرى سَبْعَ بقرات**﴾، ولم يَقُلْ «إني أرى في المنام»، وقد وردَتْ هذه الصِيغةُ في القرآنِ الكريم في موضعٍ آخر، وفي هذا جَماليةٌ لُغوية:

فلم تَرِد لأنّ الذِهْنَ يُدْرِكُ تِلقائياً في عُرْفِ البشر أنها رؤيا في المنام.

ولأنّ محوَر قِصةِ يوسفَ عليه السلام في كلِّ مَراحِلِها يدورُ حولَ الرُّؤى.

ولأنّ التأكيدَ على أنها رؤيا سيردُ في آخرِ الآية، كان الأسلوبُ أبلغَ في عدمِ التّكرارِ، ويكونُ أكثَرَ بلاغةً حينَ يكونُ المحذوفُ في أوّلِ الكلام.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ غرَابَةِ المشهد في رُؤيا الملِك: فلقد رأى بَقَراً يأكلُ بقراً، وهذا خِلافُ ما اعتادَ عليه الناس، ويَزدادُ المَشهدُ غرابةً، حين يرى أنّ البقرَ الهَزيلَ الضعيف، يأكلُ البقرَ السَّمين.

وهذا أيضاً خِلافُ ما اعتادَ عليه الناسُ في إعمالِ مبدأ القياسِ في الأحجامِ.

ولقد شاءَ الله تعالى، أن يكونَ المشهدُ غريباً، ليحصلَ التحريكُ في الأحداثِ حتى يقضيَ أمراً كان مفعولاً.

اللطيفة الخامسة: في الدُّخولِ المفاجىءِ لعُنصرٍ جديدٍ على القِصة، ألا وهو المَلِك، فلقد كانتِ الأحداثُ تَدورُ حتى الآنَ بعيداً عنه، ولم تَكُنْ هناك حاجةٌ قَبْلاً لذِكْرِهِ. إلا أنَّ الله تعالى، جَعلَ كلَّ شيءٍ بقَدَر، فأجرى الرُّؤيا عندَ الملك، وجعلَها مُعَقَدةً صَعْبَة الحل، فأحدثَ المَلِكُ في بحثِهِ عن تفسيرِ رُؤياهُ تحريكاً غيرَ هادىءٍ لمجرَياتِ الأحداثِ، سيكونُ في صالحِ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة السادسة: لُغوية في قولهِ تعالى: ﴿**عِجاف**﴾ أي أصابَها الهزال الشديد، وهي جَمْعُ أعجفُ وعَجْفاء، وفي غير القرآنِ الكريم يكونُ الجمعُ على وزنِ فُعُل أي عُجُف، إلا أنّ وُرودِها في صيغةِ عِجاف، جاءَت أكمل، تَناسقاً معَ قولِه تعالى: ﴿**بقراتٍ سِمان**﴾.

فانظُر أخي المؤمن، أينَ يذهبُ بكَ القرآنُ الكريمُ في التمتُّعِ بجمالِ اللُّغة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**وسَبْعَ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِسات**﴾.

وفي هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التوافُقِ الُّلغويِّ بين هذا الجزءِ مِنَ الرؤيا، مع الجُزءِ الأول:

فهناكَ سبعُ بقراتٍ، وهنا سبعُ سُنْبُلات.

وهناك يَغْلِبُ الضَعيفُ القَويُّ وهنا أيضاً.

وهناكَ لم يَفْقَهِ الملكُ مَعْنَاها، وهنا أيضاً.

وهذا التوافقُ يحققُ الانسجامَ في ذهنِ القارىءِ والمستمع، في سَعْيِهِ لمعرفةِ تأويلِ الرؤيا.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا أنه رُغمَ التُّوافقِ السالِفِ الذِكْر، جاءَ هذا الشطرُ منَ الآيةِ بأسلوبٍ يختلِفُ عنِ الشطرِ الأول، مَنْعاً من حصولِ التَكْرار:

فلمْ تُذْكَر أعدادَ السُنْبُلاتِ مرتين، كما حصَلَ مع ذكرِ البَقرات، وإنما قال الله تعالى: ﴿**وأُخرَ يَابِسات**﴾.

ولم تُذكر غلبةَ الضّعيفِ على القَويِّ من السُنبلاتِ معَ ذهابِ المعنى إلى حصولِهِ، وقد ذُكِرَ في الشطرِ الأولِ من الآية.

وهذا الأسلوبُ في السردِ، يفوقُ أسلوبَ البشرِ في التعبيرِ والإيجاز.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ عناصِرِ رُؤيا المَلِك: وهي البقرُ والسنابل، لنتأمَّلَ المَغْزَى الذي رَمَتْ إليه الآيةُ الكريمة:

فهذانِ العنصرانِ ممَّا أَلِف الناسُ رؤيته في حَياتِهِمُ اليومية.

وهما في ظاهرِ الحال منَ الأمورِ البسيطةِ على الفَهْمِ والإدراك.

إلا أنَّ حركةَ الرُّؤيا، جعلَتْها منْ أصعبِ الألغازِ.

وهذا ما سَمَحَ للملِكِ بالتعبيرِ السليمِ عنْ مضمونِ الرُّؤيا في طلبهِ للتفسير مع عدمِ تَمكُّنِهِ من فَهْمِ معاني رُؤياه.

لقد شاءَ الله تعالى أن يُعْلِمُ المَلِكَ، ومِنْ خَلْفِهِ البَشر، أنهم لم يبْلُغُوا منَ العلمِ إلا القليل، وما هم ببالغينَ منهُ شيئاً إلا بما شاءَ لهم مِنَ الفتح، ولا يَتَكرَّرُ الفَتحُ الغيْبِيُّ إلا وقتَ مجيء الأنبياءِ والرُّسُل.

أمَّا ما تَبَقّى مِنَ الفَتْح، فهو بالتَّتابُعِ والتّراكمِ.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿يا أيها الملأ أفْتُوني في رُؤيايَ إن كنْتُم للرُّؤيا تَعبرُون﴾**.

في هذا الشطر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا للحالِ النَّفسيَةِ للملِك، في هذه اللحظات:

فلقدْ أصابَهُ الاضطرابُ والتأزُّمُ حينَ جاءَتْهُ الرُّؤيا، ولم يَقْدِرْ على تأويلِها أو فَهْمِها، رُغْمَ وُضُوحِها: لقد جاءَتْ واضحةً لا تَحْمِلُ اللَّبْسَ، ووقائِعُها سهلةٌ على السَّرْد.

وهو رُغْمَ سُلْطَتِهِ وبَأسِهِ لم يَقْدر لها دَفْعاً، بل انسلَّتْ إليه في هَدأةِ نومِهِ، وتجاوَزَت كُلّ الدِّفاعَاتِ واستقرَّت في ذهنِه.

فإذا به يَستَنْجِدُ بالناسِ وقدِ اعتادَ أن ينجد.

وكانَ في كلامهِ تعبيرٌ عنِ الضَّعفِ إذْ قال: ﴿**يا أيُها الملأُ أفتُوني في رُؤياي**﴾.

وكانَ في كلامهِ شَكٌّ في إمكانيةِ نَجْدَتِه إذ قال: ﴿**إنْ كُنتُم للرؤيا تَعبرُون**﴾.

فيكونُ بذلك قد استجمَعَ كُلَّ عناصرِ الإحصَار:

- فهو ضعيفٌ رُغْمَ كُلِّ القوةِ التي يَتَمتَّعُ بها.
- وهو متأكِّدٌ منْ وُجودِ خَطرٍ داهمٍ، نظراً لوضوحِ الرُّؤيا.
- وهو غير متأكِّدٍ منْ أنّ الملأَ سيُحْسِنُونَ تَعبيرَها.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ جماليةِ الصُّورةِ التي ساقَتْها إلينا كلمةُ: تَعْبرُون، والعُبورُ يكونُ عادةً للنهرِ أو المفَازَةِ، فحينَ تقولُ: عبَرتُ النهرَ تتخيَّلُ نَفْسَكَ تخوضُ عُبابَه، وتتجاوَزُه من مكانٍ إلى آخر.

وهكذا الصورةُ في الآيةِ القُرآنية: عبورُ الرؤيا، وكأنك تَسْلُكُ فيها من مَبْدَئها إلى مُنتهاها مَسْلَكاً يُمَكِّنُكَ منَ الإمساكِ بأطرافِها.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ مبدأ أساسي طبَعَ الله تعالى عليه نفُوسَ البشرِ في التكامُلِ والتَّناصُر عندَ ضَعْفِ الحَوْلِ، وذَهابِ الطُّول، ولم يَخْرُج الملِكُ عن هذه القاعدة في طلبِ المعونةِ منَ الملأ، ولا يَخرُجُ عنها سَوِيٌّ عَاقِل، تأكيداً على ضَعْفِ الإنسانِ مَهْمَا بَلَغَ منَ القُوَّةِ وعُلُوِّ الشأْنِ مِصداقاً لقولِ الله تعالى: ﴿**وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً**﴾[1].

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**قالوا أضغاثُ أحلام وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمين**﴾.

---

(١) [سورة النساء الآية: ٢٨].

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحْظِنا لاشتدادِ التأَزُّمِ في حقِ الملكِ: لقد عَبَّرَ في الآيةِ السابقةِ عن عَجْزِهِ عنْ تأويلِ رُؤياه، واستنجدَ بالعارفينَ والمعبرين مِنْ قومِهِ، ومنْ عادةِ الملوكِ أن يأْمُروا فيُطاعُوا وأن يَطْلُبُوا فيُلَبُّوا، وإن يستشيرُوا فيُشَارَ عليهم بما يُحبُّون ويَرْضَونَ.

قال لهم: ﴿أفْتُوني في رُؤياي﴾، فأجَابُوهُ: **﴿أضغاثُ أحلام﴾**.

فبدلَ أن يُهَدِّئوا مِنْ رَوْعِه، ويُعيدوا السَّكينةَ إلى نَفْسِهِ، زَادُوهُ اضطراباً وتَأَزُّماً وكأنهم يَدْفعُونَ بالقِصةِ إلى قِمّةِ التأَزُّمِ، ويَصلُونَ بها إلى ما تعارَفَ اللغويُّونَ على تسميتهِ بالحَبْكَةِ، كلُّ هذا بتقديرِ الله تعالى الذي أعجزَهُم عنِ التأويل، وأقْعَدَهُم عنِ التفسير، حتى يأخذَ الحلُّ لهذه العُقدَة مكانَتَه.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ الجماليةِ اللغويةِ في التصويرِ القرآنيِّ في قولهِ تعالى: قالوا أضغاثُ أحلام، والضَّغثُ في اللغة هو الحَزْمَةُ من أنواعِ النّباتِ والعُشْبِ والحَشِيش، بِشَرْطِ أنْ يكونَ مما قامَ على سَاقٍ واستَطالَ، فهي المجموعَةُ من النّباتِ الغيرِ مُتنَاسِقَة، كأنك تقول: مِنْ كُلِّ وَادٍ عصا، فإذا بهم يُشَبِّهونَ رُؤيا الملك بالمجموعةِ المتنافِرَةِ منَ الصُّورِ والأفكارِ التي ضُمَّتْ في حَزْمَةٍ واحدة، فقالُوا: **﴿أضغاثُ أحلام﴾**.

اللطيفة الثالثة: في دِقةِ التعبيرِ القُرآنيِّ في وقوفِنا عندَ قولهم: **﴿وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ﴾**

فإنَّ المَلِكَ حينَ جَمَعَهُمْ، لم يَجْمَع سوادَ الناسِ الذي لا علمَ لديهم.

بلْ جمعَ أهلَ العلمِ في زَمانهِ الذين اكتسبُوا من معارفِ زَمانِهم أكملَها

وأدَقَّها وخاصةً من عُرفَ بين الناسِ بتعبيرِ الرُّؤى وربما جمعَ السَّحرة والكهَنَة.

وهم لم يَنْقُوا عن أنْفُسِهم العلمَ بالكُليَّةِ، بل قامُوا بالتفريقِ بينَ أمرين:

الأمر الأول: هو تعبيرُ الرُّؤى، وذلك حينَ تكونُ أحداثُ المنامِ متسقةً متناغمةً متوافقةً مع ما ألَفَهُ الناسُ منَ الأحداثِ.

والأمر الثاني: هو حينَ تكونُ الأحداثُ مختلطةً مضطربةً لا يكونُ فيها ترتيبٌ معلوم، واتفَقُوا على تسميتها بالأحلام.

فهم بذلك لا يَنْفَونَ عن أنفسِهم العلمَ بالكُليَّةِ، بل يَنْفُونَ عِلْمَهم بتأويلِ الأحلامِ فقط، فجاءَ التعبيرُ القُرآنيُّ: وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - **للدلالة على ضعف الإنسان مهما علا في السلطة والجاه والسلطان، حتى وإن صار أقوى ملوك الأرض، فإن حدثاً بسيطاً، كرؤيا في المنام، يمكنه أن يفزعه ويؤرقه ويذكره بواقعه الضعيف، فهو تحت ألطاف الله تعالى، وإن شاء أوضعه وافقره وأذله وأفقده شعوره بالعزة والسلطان.**

٢ - **للدلالة على أن الله تعالى إذا شاء أن يغم على الخلق جميعهم أمراً ما، فلن يقدروا أبداً بما يملكون من مقومات المعرفة والعلم أن يخترقوه، إلى أن يأذن لهم بذلك، وإن حصل وعرفوه، وجب عليهم أن يشكروا الله تعالى أن سمح لهم بمعرفته، لا أن يتنكروا وينكروا الفضل، والمؤسف أن هذا هو حال أكثر الناس، وخصوصاً أهل العلم والإختصاص الذين يجحدون فضل الله تعالى عليهم.**

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٧]

نُتابعُ مع هذه الآيةِ أخي المؤمن، سِياقَ الفَصْلِ الفَاصلِ في حياةِ يوسفَ عليه السلام، والذي سيُسلَّطُ عليه الأضواء، كنتيجةٍ لحلِ عُقدةِ تأويلِ رُؤيا الملك، وقد رأينا في الآياتِ السابقة كيفَ عجزَ المفسِّرونَ عنِ التأويل وبلغَ التأزُّمُ لدى الملك مَبْلَغَه مما استوجَبَ حَشْدَ طاقات الحاشيةِ بكاملِها.

يقولُ الله تعالى: **﴿وقالَ الذي نجا منهما وادكر بعدَ أُمَّةٍ أنا أُنبئُكم بتأويلهِ فأرْسِلُون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في عُلُوِّ النَّصّ القُرآنيِّ عنْ ذكرِ اسمِ أو صفةِ الشرابيِّ، وهو الذي قَضَى له الله تعالى بالنّجاة، وكان قد علمَ بنجاتِهِ مَنْ يوسفَ عليه السلام، حينَ عبّرَ له تفسيرَ رُؤياهُ، وهذا الحدثُ بذاتِه لا يُمحى منَ الذاكرةِ، وإنْ تَوارَى حيناً من الزمن، في تلافيفِ الأحداثِ المختزَنَةِ لديه، وقد هَيّأَ الله تعالى كلَّ الأسبابِ لحصولِ الاستذكار:

فجعلَ مَجرياتِ الأحداثِ، تدورُ بشكلٍ تَرَقُّبِيٍّ في حَقِّ الشّرابيِّ في الفترةِ الممتدَّةِ بين تعبيرِ رُؤياهُ إلى حينِ نَجاتِهِ، مما طَبَعَ الحَدَثَ في الذاكرة..

ثم خبَتْ هذه المشاعرُ على عادةِ الناس بعدَ نجاتِه، وعادَ إلى الدُّنيا يخوضُ فيها معَ الخائضين.

ثم حصلتْ رُؤيا الملك، ولم تَتَضِحْ معالِمُ مَغْزَاها لديه، ثم أشْكَل على القومِ تعبيرُها، مما أوجَدَ حالةَ استنفَارٍ عامةٍ لدى الجميع، كانت بمثابةِ المُحَرِّكِ لاستحضارِ ذِكرى يُوسفَ عليه السلام، في ذهنِ السَّاقي.

وكان الأمرُ الفاصلُ هو اشتراكَ الحدثِ الأول: أي تعبير الرُّؤيا لديه معَ الحدثِ الثاني أي حصولِ رُؤيا الملك في الحَلِّ المشترَكِ وهو الُّلجوءُ إلى يوسفُ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: لُغوية في وقوفِنا عندَ كلمةِ: ﴿**وادكر**﴾ وهي في الأصلِ إذْتَكَرَ على وزنِ إفْتَعَلَ قُلِبَت تاءُ الافتعالِ دالاً، وأُدْغمتْ في الذال وهي تعني: أَجْهَد نَفْسَه بالاستذكارِ، تدليلٌ على أنّ الجميعَ انهَمَكَ مع الملك في البحثِ عن حلٍ لهذه المُعضلة.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿**وادَّكَرَ بعدَ أُمَّة**﴾ وفي هذه الكلماتِ إيجازٌ بليغ، فالأمةُ في الأصلِ يُرادُ بها الجماعةُ منَ الناس، كما أنها يُمكِنُ أنْ تُقَال للرّجُلِ الجامعِ لصفاتِ الخير، إلا أنها يُمْكِنُ أن تُقَالَ للفترةِ منَ الزمن، ولا تكونُ كذلك إلا بعدَ حذفِ مُضافٍ كأنْ تكونَ الكلمةُ المحذوفَةُ: حينَ أو زَمَنَ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقَامَهُ وجوباً.

وحين نقرأُ: ﴿**وادَّكَرَ بعدَ أُمَّة**﴾ نَفْهَم من هذه العبارةِ الوجيزة:

أنَّ الساقي أَعْمَلَ ذِهْنَهُ في البحثِ عنِ الحل، نظراً لأهميةِ الحدثِ المطروح.

وأنَّ الحدثَ المهم، وإنْ كان يتجاوزُ شَخْصَه، إلا أنه اعتَبَر نَفْسَهُ مَعْنِيّاً به لارتباطِهِ الوثيقِ بحال الملك..

وأنه كانَ قد نَسِي يوسفَ عليه السلام مدةً من الزمن وما كان لِيتذَكَّرَهُ تِلْقائياً، وهذا بعضٌ منْ تقديرِ الله تعالى، بإيجادِ الظُّروفِ الملائمةِ لتمامِ الأحداث.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قَناعةِ الساقي الأكيدةِ، بوجودِ الحلِّ عندَ يوسفَ عليه السلام، والقناعةُ الراسخة لا تتكَوَّنُ إلا بعناصرَ أساسية نذكرُ منها:

١ - **وجودُ مشكلةٍ تَحتاجُ إلى حل.**

٢ - **إعسارُ الحلِ السريع.**

٣ - **تأزُّمٌ خلالَ البحثِ عنِ الحل.**

٤ - **طرحُ الحلِ من مصدرٍ مختلف.**

٥ - **تأكُّدُ صَوابيةِ الحلّ.**

٦ - **رسوخُ اليقينِ بقُدرةِ مصدرِ الحلِ على إيجادِ حلولٍ لاحقة.**

وما حصلَ معَ الساقي مُنْطَبِقٌ تماماً معَ هذه العناصر فإذا به يَضَعُ يوسفَ عليه السلام في مكانةٍ عاليةٍ في إمكانية حل المسائل المستعصية، وإذا بنا نَسْمَعَهُ يقول: **﴿أنا أُنَبِّئُكُمْ بتأويلِهِ فأَرْسِلُون﴾**.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ الساقي: **﴿يوسفُ أيُّها الصِّدِّيقُ أفْتِنا﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لاستمرارِ الأُسلوبِ القرآنيِّ في تَجاوزِ تفاصيلِ الأَحداث، لعُلُوِهِ عنْ أسلوبِ الناسِ في القَصص، مما يَتْرُكُ للقارىءِ والمستمعِ إمكانيةِ المشارَكَةِ في مَلءِ الشَواغِرِ التي لا يَحتاجُ العقلُ البشريُّ وجودَها وجوباً في السرد، فَنَعْرِفُ مباشرةً أنَّ الساقي ذَكَر اسمَ يوسفَ عليه السلامُ للحاشية، وطلبَ منهم إيصالَه إليه في السّجنِ، وقد حصَلَ هذا الأمرُ بموافقةِ الملكِ وعِلْمِه...

اللطيفة الثانية: في جَمَاليةِ المناداةِ التي اعتَمَدَها الساقي في مُخَاطَبةِ يوسفَ عليه السلام بقولهِ: ﴿**يوسفُ أيُّها الصِّدِّيق**﴾

لقد كان يوسفُ عليه السلامُ يُخاطِبُهما حينَ كانا معه: ﴿**يا صَاحِبَي السِجن..**﴾

وفي هذا الخطابِ تَوَدُّدٌ ولُطفٌ.

وها هو ذا الساقي، وبعَدَ سنوات، يَرُدُّ ليوسفَ عليه السلامُ الوُدَّ واللُّطفَ في قوله: ﴿**يوسفُ أيُّها الصِّدِّيق**﴾.

وفي هذه المُنَاداةِ نَلْحَظُ الكثيرَ منَ المعاني:

فحين ذَكَرَهُ باسمِهِ أَعْلَنَ له بقاءَ ذِكْرَاه حاضِرةً في ذِهْنِهِ، ويَغْلِبُ على الناسِ حين تكونُ لقاءَاتُهم عابرةً، ألا يحتَفِظُوا بأسماءِ مَن يَلْتَقُونَ.

وحين يَستعمِلُ أداةَ النداء: ﴿**أيُّها**﴾ يُعَبِّرُ عنِ اهتمامٍ بشخصِ يوسفَ عليه السلام، يُحاولُ أن يَنْقُلَهُ إليه عَلَناً.

وحينَ يقولُ أيُّها الصِّدِّيق بصيغةِ المُبالغة، فكأنهُ يقولُ له: إننا نُصَدِّقُكَ دائماً، وفي كلِّ ما تَقُول.

وحين يقولُ له: ﴿**أَفْتِنَا**﴾، فإنه يُعَبِّرُ عنْ بالغِ الاهتمامِ في التفسيرِ الذي سيُعطيه يوسفُ عليه السلام. وحين تقولُ لعالمٍ: أَفْتِنا، فإنك تقولُ له بطريقةٍ غيرِ مُباشرة: لا يُوجدُ لديَّ أيُّ خِيارٍ آخرَ غيرَ ما ستأتيني به.

ثم يَقُصُّ الساقي على يُوسفَ عليه السلام رُؤيا المِلكِ فيقول: ﴿**أَفتِنا في سَبْعِ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبْعٌ عِجاف، وسبعِ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابسات**﴾.

نُلاحظُ أنَّ النَّصّ جاءَ مُطابقاً تماماً لما قالَ الملك وهذا ما نُسَمِّيه في أيامِنا الحاضرةِ: بالأمانةِ العِلمية، والمقصودُ مِنَ النقلِ الحَرْفِيِّ، هو الحرصُ على عدَمِ

ضياعِ شيء مِنْ صحةِ التأويل: فهذا علمٌ يَجْهَلهُ الساقي، ولا يَدْرِي ما إذا كانَ أيُّ تفَصيلٍ مُغْفَلٍ في المعلومةِ المنقولةِ سيُؤدِّي إلى تغييرٍ في التأويل.

ثم يقولُ في آخرِ الآية: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إلى الناسِ لعلَّهُمْ يَعْلَمُون﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ لطيفتان اثنتان:

الأولى في قولهِ ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إلى الناسِ﴾، وهذا الأسلوبُ الذي اعتَمَدَهُ الساقي في استحثاثِ يوسفَ عليه السلام، بالإجابةِ أولاً، ثم الاهتمامِ بالموضوعِ وإيلائِه ما يَلْزَمُ من تدقيقٍ وتَعَمُّق هو الذي يَعْتَمِدُه الناسُ حينَ يَطْلُبونَ المَعُونة، ويُريدونَ أنْ تكونَ هذه المَعُونَة مُمَيَّزةً فائقة فيلجأُونَ إلى الوسائلِ المساعدةِ، ومِنْ بينها إشراكُ كلِّ الناسِ في سَماعِ أو رُؤيةِ حصيلةِ المعونة، وهو ما يُسَمَّى في علمِ النفس: الحَشْد.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ كلمةِ ﴿يَعْلَمون﴾ حيث لم يذكرُ مفعولُ الفِعل، أيْ لم يُصرّحْ عنِ الأمر الذي يعلَمُونَه، فاحتملَ أن يكونَ معنَى قولهِ ﴿لعلَّهُم يعلَمُون﴾:

أي رجاءَ أنْ يَعرِفَ الملكُ تأويلَ رُؤياهُ فتسكُنَ نفسُه وتسْكُنَ الناس.

أو لعَلَّ الناسَ تَعْرِفُ مكانتِكَ وعِلْمِكَ.

أو لعَلّ الملكَ يَلْحَظُ مُعَاناتِكَ في سِجْنِك فيُخلِّصُك.

أو غيرُ ذلك..

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن سنة الله تعالى في الخلق هي النسيان، وأنه مهما كان الحدث الحاصل جللاً، فإن الأيام كفيلة بدفعه إلى مخازن الذاكرة البعيدة، خصوصاً بعد تحصيل المبتغى، وتمام حصول الأمن والطمأنينة.

٢ - للدلالة على أن حس الإجتماع موجود أصلاً لدى الناس والإستثناء هو الإعتزال والإنفراد. فهذا الساقي حين سمع بمأساة الملك أعمل فكره في الإشتراك الجماعي مع الآخرين للبحث عن حل للمشكلة، وأسعفته ذاكرته بمعلومة مقدرة يوسف عليه السلام على تعبير الرؤى، فما توانى عن المشاركة.

٣ - للدلالة على أن مشيئة الله تعالى بنفاذ أمره، تجري تحت سنن وقواعد دقيقة، فلا تتجلى الحقائق، ولا تقع الأحداث إلا بمقدار مقدور من الله تعالى، بتوقيت دقيق وبتسلسل بديع لا نقدر نحن البشر على الإحاطة به بكامله.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٨]

كنا قَدْ رأينا أخي المؤمن في الآياتِ السابقة ما كانَ منْ رُؤيا الملِك، وعَجْزِه وحَاشِيَتِهِ عنْ تفسيرِ الرؤيا، وقد جعلَ الله تعالى في هذا الإحصارِ سبباً للجوءِ إلى يوسفَ عليه السلام في سِجْنِهِ حيث تُرِكَ فيه مَنْسِيّاً سنواتٍ طِوالاً، وها هو ذا يُجيبُ السائلَ عن سؤالِه مباشرةً دونَ تَرَدُّد.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿قال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: فيما نَلْحَظُه مِنْ دُخولِ يوسفَ عليه السلام في صُلْبِ الإجابةِ دونَ مُقَدِّمات.

وبالعودةِ إلى الظَرفِ الدقيقِ الذي وُجِدَ فيه لحظةَ سُؤالِه نَجِدُ المُعطياتِ التالية:

فهو موجودٌ في السِجنِ بلا ذَنبٍ منذُ سنوات، ولم يَلْتَفِتْ إليه أحدٌ منَ الناس، ولا حتى الساقي الذي بَشَّرَهُ بنجاتِه، ويوسفُ عليه السلام منقطعٌ عنِ الدنيا.

وهو يَرْقُبُ نتائجَ ما أوصَى به الساقي عند خروجِه منَ السجنِ بذِكْرِه عندَ الملِك لإنهاءِ سَجْنِه ولقد طالَ انتظارُه ونحن نعرفُ شعورَ المترَقِّبِ المَسْجُونِ ظُلماً وعُدواناً، المنتظرِ العدلَ والإنصاف.

فإذا بهم حينَ تَذَكّروه أَتَوهُ لا لِيُخْرِجُوهُ منْ سجْنِهِ بل لِيطلُبُوا منه المَعونَةَ مع بقائهِ في سِجْنِه!

العامةُ منَ الناس، والسلوكُ الطَبيعيُّ المقبولُ منهم أنْ يَرْفُضُوا هذه المعونة، أنْ يَطلبُوا أولاً إنصافَهم وإطلاقَ سَرَاحِهم أو على الأقل اشتراطَ تَخَليتِهم بعدَ نجاحِ المَعُونَة.

ما كان هذا تصرفُ يوسفَ عليه السلام، بل تَخَطَّى مِحْنَتَهُ التي هوَ فيها، وتجَاوَزَ مَطْلَبَهُ الخاصَ بالحرية، وأَجَّلَ طلب إنصافِه، وإعلانِ برَاءَتِه، وأجابَهُم إلى مَطْلَبِهم، وأَعطاهُمُ التفسيرَ المطلوبَ للرُؤيا الذي جعلَ الله تعالى فيه سببَ

نجاةِ أُمةٍ بكاملها، مما يُحَقِّقُ فيه خَصائصَ عاليةً اختَصَّهُ الله تعالى بها، وهي الصَبرُ والأَناة، وبعدُ النظرِ وسَعَةُ الفكرِ والدِرايةِ في اختيارِ المواقف، والكَرَمُ الواسعُ على ما سنَرى في لاحقِ الآيات، والتعالي على الظُلم، وتقديمُ الخيرِ العامِ على النفع الخاص، وما أَحْوَجَنا إلى مِثْلِ هذه الصفاتِ.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قَولِه تعالى: **﴿قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دَأَبا﴾**.

وهو أُسلوبٌ يَزْرَعُ الثِقَةَ في نفسِ المستفتي حينَ يَجِدُ أنّ المُتَكَلِمَ نفسهُ يَتَكلَّمُ بالثِقَةِ التامة، فهو لم يتردَّد في الإجابةِ، كما أنه لم يُظْهِر خللاً أو ضُعْفاً في وُضوحِ الرُؤيا، ولم يَطلُبْ زِيادةَ تفصيلٍ أو إيضاح، بل اعتمَدَ أُسلوبَ الإخبارِ بمعنى الأمر، للمبالغةِ في الإيجابِ إذْ قال: **﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دَأَبا﴾**.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لكلمةِ: دَأَبا أي بصورةٍ مُستمرةٍ متواصلةٍ معَ الاجتهادِ في الإكثارِ منَ الإنتاجِ. هو لم يَكْتَفِ بإيرادِ معلومةِ وُجوبِ الزرع، بل أَعْطَى معها الأُسلوبَ والكيفيةِ، وأوْضَحَ أهميةَ الإكثارِ في كلمةٍ وجيزةٍ تَحْمِلُ الكثيرَ منَ المعاني:

ففيها إيذانٌ بأنّ أمراً خَطِيراً سيَحْصُلُ يَسْتَوجِبُ التأكيدَ على التفرُّغْ لاستغلالِ وقتِ الخُصوبَةِ.

وفيها حثٌّ على منعِ تَسَرّبِ المَللِ إلى النفوس: فأنتَ بحاجةٍ إلى المُحَفِّزِ لِتُقْنِعَ الناسَ بالاستمرارِ بالعملِ بهمةٍ ونشاطٍ لتخزينَ المُؤَنْ والثِمار، لمدةِ سبعِ سنواتٍ مستمرة، وهم ينتظرونَ جَدْباً غيبياً في حقِّهم لا يَرَوْنَهُ رَأيَ العين، قد يُخامِرُهم الشَكُّ بمجيئَهِ يوماً فهو يَطْلُبُ منهم أنْ يَجْعَلُوا اجتهادَهم في الزَرْعِ عادةً مستمرةً متواصلة.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿فما حَصَدْتُم فذَروهُ في سُنبلِهِ إلا قليلاً مما تأكلُون﴾**.

في هذا الشطر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ التَسَلْسُلِ الفِكريِّ الواضحِ والسليم الذي يُقَدِّمهُ يوسفُ عليه السلام في تعبيرِهِ للرؤيا.

فهو سُئلَ فقط عن معْنَى البقراتِ السِمان، والسُنبلاتِ الخُضْر وكان بإمكانهِ أنْ يقولَ له: هي تعنِي سنواتِ الخِصْبِ والإنتاجِ.

إلا أنه مِنْ وَاقِعِ حِسِّهِ الإنسانيِّ أولاً وحُبِّهُ للخيرِ ثانياً، وما حَباهُ الله تعالى بهِ من فِكرٍ نافذٍ وعقلٍ راجح، وبُعْدِ نظر، وما مَيّزَهُ الله تعالى به من مِيزاتِ النُّبوةِ والرّسالة، تجاوَزَ مُجرَّدَ تعبيرِ الرؤيا، ليقومَ بتبني الحدثِ برُمَّتِهِ، وهو ما سيَحصُلُ للأرضِ وسُكّانِها مِنْ تَبَدُّلاتٍ مُناخيةٍ وبيئيةٍ تُهَدِّدُهم، فأعطَى حلاً مُتكاملاً، عرضَ فيه المشكلةَ بوضوحٍ تام، وأدْرَجَ معها في السِياقِ ماهيَّةَ الحلول، وكيفيةَ اعتمادِها معَ ذكرِ تفصيلاتٍ قد تبدو ثانويةً، إلا أنها عظيمةُ الأَهمية.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لقولهِ: **﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبله﴾**، وفي هذا إعجازٌ قرآنيٌّ عظيم:

القمحُ مؤلَّفٌ من مادة نشوية، يُغَلِّفُه غلافانِ مُستقلانِ: الأول الداخلي يَلْتَصِقُ به التصاقاً شديداً، حتى لا يَكادُ يَنْفَصِلُ عنه، والثاني خارجي كثيفٌ شديدُ السَماكة، تَغْلِبُ عليه الألياف وهو ما يُؤَلِّفُ الأساسَ الذي في اجتماعهِ مع الأَغلِفَة الأُخرى، منْ حباتِ القمحِ الأُخرى يُكَوِّنُ السُنْبلَة.

والقمحُ إذا نُزِعَتْ عنه الأغلفةُ الخارجية، يُصْبِحُ سَهْلَ التعرُّضِ لهجمات حَشرةِ السوس، التي تَخْتَرِقُ بسهولةٍ الغلافَ الداخليّ الرقيق، وتُمْعِنُ طَحناً في نَشاءِ القمحِ، وتُفْسِدُه فَيُصْبِحُ غيرَ صالحٍ لطعامِ البشر.

والناسُ في زمنِ يوسفَ عليه السلام لم تَكُنْ تَعْرِفُ هذه الحقائقَ العلمية، ولم تَكُنْ قد جرّبتِ اختزانَ القمحِ على مدَى سنواتٍ طويلة، فإذا بيوسفَ عليه السلام، بما آتاهُ الله تعالى من فتحٍ غيبيٍّ يُحذِّرُهُم من نَزْعِ الغلافِ الخارجيِّ عنِ القمحِ، بقوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.

فسبحانَ الله العظيم، الذي أرْسَى لهذه الدُّنيا قَوانِينَها، وعرَّفَنا أسرارَها وهيّأَ لنا أسبابَ الإفادةِ منها.

وأستطردُ هنا، لأسوقَ فَتْحاً عِلمياً جديداً مع القمحِ أيضاً، ولكنْ مع الغلافِ الداخليِّ للقمحِ هذه المرة، ومعَ إعجازٍ نبوي اخْتَصَّ الله تعالى به رسولَه الكريم، محمداً عليه أفضلُ الصلاةِ، وأتمُّ التسليم في زمنٍ لم يَكُنِ الفتحُ العلميُّ وصَل فيه إلى ما وصَلَ إليه في يومِنا هذا.

روَى الإمامُ ابنُ ماجه، عن أُمِ أيمنَ، أنها غرْبَلَتْ دقيقاً - أي أزالتْ عنِ الطحينِ بعدَ طَحْنِه الغلافَ الدّاخليّ الرقيق، وجَعَلَتْهُ دقيقاً مَنْخُولاً - فصَنَعَته للنبيّ صلى الله عليه وسلم عجيناً، فقال: «ما هذا؟» قالت: طعامٌ نصنعهُ بأرضِنا، فأَحَبَبْتُ أنْ أصنع منه لكَ رَغيفاً، فقال: «رُدّيه فيه ثم اعجِينه»، أي أعيدي إلى الطّحينِ ما أزَلْتِ عنهُ منَ الغلافِ الداخليِّ، ثم اعجنيه.

ولقد أظهرَ العلمُ الحديثُ، أنّ في قشرةِ القمحِ الداخلية، مادة «البريبري» وهي المادةُ الأَساسيةُ التي تُكَوِّنُ الڤيتامين باء، العنصرَ الأساسِيِّ والحيويِّ لِتغذيةِ الجهازِ العَصَبِيّ، والمُصابونَ بنقصِ هذا الڤيتامين يُعانُونَ من هُزالٍ حادٍ، وتَقَرُّحاتٍ مَعِدِيةٍ وفَقْرٍ في الدم، وكانَ هذا الاكتشافُ هو باكورةَ معرفةِ الإنسانِ بعالمِ الڤيتامينات.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ قوله: ﴿إلا قليلاً مما تأكلُون﴾.

وفي هذا إشارةٌ إلى كيفيةِ التعاملِ معَ مُتَطَلّباتِ الحياةِ في هذه الفترةِ الصعبةِ

المقبلةِ عليهم، وكأنَه يَضَعُ لهم برنامجاً تَقَشُّفياً يَدْعُوهُم للالتزامِ به منْ ضِمْنِ تَبَنِّيهِ لمشروعِ الإنقاذِ المتكامل، ويُظْهِرُ لنا بوضوح الإعجازَ القرآنيَّ في الإيجازَ لنجدَ أنه وَضَعَ في آيةٍ واحدة، تَفصِيلَ الشَّقِّ الأوّلِ منَ المرحلةِ الممتَدّةِ على سبعِ سنوات في ماهِيَّةِ الحدث، وكيفيةِ التعاملِ معه معَ لَحْظِ كافةِ التفاصيلِ الهامةِ لنجاحِهِ.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الأخذ بالأسباب في التعامل مع طوارىء الحياة، وإعمال الرأي والفكر وعدم التخاذل أو التهاون في إيجاد أفضل الظروف وأحسن الطرق لتحسين سبل الحياة، بما فيها الأخذ بمعطيات العلم الحديث ودفع الناس إلى التفكير في تحسين ظروف الحياة.

٢ - للدلالة على وجوب الإقتصاد في الإستهلاك تحسباً من حال الإنكماش الإقتصادي، وإجراء تمارين على برامج التقشف، وبالإجمال، الإبتعاد عن التبذير والإسراف في الإنفاق، حتى في وقت الرخاء والبحبوحة، لأن هذه الحال لا تدوم أبداً.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣٩]

يتابعُ يوسفُ عليه السلام معَ هاتينِ الآيتين، ما كانَ قد بدأهُ في إعطاءِ الحلِّ المتكاملِ لتعبيرِ رُؤيا الملكِ معَ ما يَقتَضِي فِعْلُه من إجراءاتِ عَمليةٍ للخروجِ منَ مُعْضِلَةٍ تُهَدِّدُ الناسَ جميعاً، وكُنّا قد سَمِعْنَاهُ في الآيةِ السابقة، يُعلِّمُ الناسَ كيفَ يَستَفِيدونَ منْ سنواتِ الخِصْبِ المُقْبِلَة، فلنتابعُ معه حَدِيثَه.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام ﴿**ثم يأتي مِنْ بعدِ ذلكَ سبعٌ شدادٌ يأكُلْنَ ما قَدّمتم لَهُنّ إلا قليلاً ممّا تحصِنُون**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند تعبيرِه بقولِهِ: «**سبعٌ شِداد**» والمقصودُ بها هي السنواتُ السَبْعُ الشِداد، والسِياقُ يُفْهِمُنا أنها السنوات، وجاءَتْ بصيغةِ «شدادٍ» للتعبيرِ عنْ شِدّتها على الناس، ونتوقَّفُ قليلاً عندَ معنى شِدّةِ السنين، على الناس:

فهي تَعْني انقطاعَ أسبابِ الخِصْبِ والإنبات، وكلُّه مُتَعلِّقٌ بعنصرٍ واحدٍ بسيط: ألا وهو الماء، وجاءَ الإعجازُ القُرآنيُّ لِيَخْتَصِرَ الحياةَ كُلَّها بقولٍ واحد: ﴿**وجَعَلنا منَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيّ**﴾[1]، وجاءَ العِلْمُ قَدِيمُه وحَديثُه وجاءَ العلماءُ مُؤمِنُهم وكَافرُهم لِيُسَلِّمُوا بهذه الحقيقةِ المطلقة: ﴿**وجعَلنا من الماءِ كُلَّ شيءٍ حيّ**﴾.

وهي تشيرُ إلى ضَعْفِ الإنسانِ وخُضوعِه لسُنّةِ الله تعالى، التي شاءَها في الحياةِ الدنيا، فلَئِنْ جفتِ الأرضُ، إنقطعَتْ حِيلةُ الإنسانِ إلا مِنْ رحمةِ الله تعالى مما عَلمَهُ بالادِّخارِ والاختزان، كما نَلْحَظُ في كلامِ يوسفَ عليه السلام.

وهي تُنَبِّهُ إلى أنَّ كُلّ شيءٍ بِقَدَر، وما هذه التَبَدُّلات المُناخيةُ التي نشاهِدُها إلا بقَدَرٍ منَ الله تعالى، فلو شاءَ لأذهبَ الخُضْرَةَ والماء، وأسبابَ الحياةِ عن الأرض، وما ذاكَ على الله بعزيز.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**يأكُلْنَ ما قَدَّمتُم لَهُنّ**﴾، وفي هذه العبارةِ تعبيرانِ لُغَوِّيان جميلان.

---

(١) [سورة الأنبياء، الآية: ٣٠].

الأول: صِيغةُ المَجازِ في قوله تعالى **﴿يأكلن﴾** أي أنّ الناسَ في هذه السنوات يأكُلونَ ما ادّخرُوا مع التصويرِ الجميلِ الذي يُراوِدُ الذِهنَ في تَصوُّرِ السنواتِ تأكُلُ المُدَّخراتِ.

الثاني: في قوله تعالى: **﴿ما قَدَّمْتُم لَهُنَّ﴾** وكأنّ العبارةَ تقولُ: لا سبيلَ لكم إلا أن تَفْتَحوا خَزَائنَكُم عندَ مجيءِ هذه السنواتِ الشِداد، لأنّ جُهدَكُم الأولَ بالادِّخار، هو تأمينَ الطّعامِ لهذه السنواتِ الجائعةِ التي ستأتي وتَلْتَهِمُه.

اللطيفة الثالثة: في وقُوفِنا عندَ قولِ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام، **﴿إلا قليلاً ممّا تُحْصِنون﴾**.

هنا أيضاً نتَعرَّفُ إلى معالمَ جديدةٍ في شخصيةِ وفكرِ يوسفَ عليه السلام:

فهو لم يَكْتَفِ بتقديمِ توضيحِ الشِقِّ الثاني منْ رُؤيا المَلِك، بل أعطَى من جديدِ الآليةَ التي يَجبُ أعتمادُها في التعاملِ معَ الأحداثِ فقالَ ما معناهُ: في السنواتِ الصَعْبة، سَتجِدُونَ بينَ أيديكم ما يَحْفَظُ لكُمُ الحياةَ بالمخزونِ الذي ادَّخرْتُموهُ في الحافظاتِ تَسْتَهْلِكُونَه بالتدريج.

ولا تمنَعُ جَزَالَةُ العِبارة وإيجازُ الكلام منْ إيضاحِ مسألةٍ غايةٍ في الأهمية: ألا وهي، وجوبُ تركِ قِسْمٍ منَ المَؤونَةِ المُختَزَنةِ جانباً، قَبْل تَقْسيمِها إلى سَبْعِ سنواتٍ للاستهلاكِ وهذه التفاتةٌ فَذّةٌ نقف عندَها قليلاً:

فالاتجاهُ الأقربُ والأسهلُ عندَ الناس هو توزيعُ المَؤُونةِ على سَبْعِ سنواتٍ تحتَ ضَغْطِ حاجةِ النّفْسِ لإشباعِها معَ عِلْمِها بمحدوديةِ المخزون.

أمَّا أنْ تَمْنَعَ عنها جُزْءاً منْ هذا المخزونِ المَحْدُود فهو ممّا لا تَسْتَسِيغُه، إلا أنّ مَوجب لحظِ ما هو أبعدُ منَ الاستهلاكِ حَمَلَ يوسفَ عليه السلامُ على إظهارِ امتلاكهِ لِفكْرٍ اقتصادي واسع، إذْ قال: **﴿إلا قليلاً مما تُحْصِنون﴾**، أي: دَعُوا

جانباً قَبْلَ قِسْمَةِ المَؤونةِ على سَبْعِ سنوات، بعضاً منَ الحبوبِ على أصنافِها، لأنّكُم ستَحْتَاجُونَها للزرع عندَ عودةِ الخُصوبةِ إلى الأرض.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية: ﴿**ثم يأتي من بعدِ ذلكَ عَامٌ فيه يُغَاثُ الناسُ وفيه يَعْصِرون**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا أنّ هذا الإيضاحَ من يوسفَ عليه السلام ليسَ استكمالاً لتعبيرِ رُؤيا الملك، وقدِ انتهى منْ تعبيرِها في الآيةِ السابقة، وكان بإمكانهِ التوقُّفُ عندَ حدودِ تعبيرِ رُؤيا الملك، إلا أنه يَتجاوزُ مسألةَ التعبير لإكمالِ مُهمّتِه الأساسية ألا وهي التبليغُ عنْ ربّه، فهو هنا يَنْقُلُ وحياً عنِ الله تعالى منهُ عِلْمٌ غَيْبِيٌّ شاءَ الله تعالى إيصالَهُ إلى الناس، على لسانِ يوسفَ عليه السلام لغاياتٍ عدة:

الاولى: هي نقلُ البُشرى إلى الناسِ بالنهايةِ السعيدة التي سيصِلُونَ إليها بعدَ سنواتِ الجَدْبِ والقَحْطِ مما يَحفِزُهُم على الاهتمامِ بتطبيق خُطّةِ يوسفَ عليه السلام في الادِّخارِ والاقتصاد.

الثاني: لإيصالِ رسالةٍ إلى الملك مُفَادُها اهتمامُ يوسفَ عليه السلام، ليسَ فقط بتعبيرِ الرُؤيا وإنما بتبنّي كاملِ المسألةِ في نواحيها التنفيذية.

الثالثة: إظهارُ فضلِ يوسفَ عليه السلام وفضائِله: فضلُه في تقديمِ أكثرَ مما طُلِبَ منه وعدمُ اشتراطهِ مكاسبَ ذاتيةٍ بإعطاءِ بعضِ المعلومةِ وحَجْبِ البعضِ الآخر، وفضائلُه في تعريفِ الملكِ بهذه الخصائص التي مَرَّتْ فيما يَتمتَّعُ به يوسفُ عليه السلام منْ حُنْكَةٍ وتَمَكُّنٍ وعلمٍ واسع، وبُعدِ نظرٍ، وسَعَةِ أُفق، ودرايةٍ اقتصادية وتَتَبُّع التفاصيل، والثقةِ الراسخة، والتجرُّد عنِ المكاسبِ الذّاتية.

اللطيفة الثانية: لُغوية في جمالِ التعبيرِ القرآنيِّ في تَكْرارِ قوله تعالى: ﴿**ثم يأتي من بعدِ ذلك**﴾ في آيتين متتاليتن، تتحدَّثُ الأُولى منهما عن أيامٍ صعبة، والثانيةُ عن أيامٍ سَهْلة على وقعِ ثابتٍ جميل، تَحْملُ الكلماتِ إلى القلبِ مُباشرةً.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ دِقةِ التعبيرِ القرآنيِّ في قوله تعالى: ﴿**ثم يأتي من بعدِ ذلكَ عامٌ فيه يُغاثُ الناس**﴾.

فجاء تقديمُ الجارِّ والمجرورِ لإظهارِ أهميةِ مجيءَ هذا العام.

وإذا ما وقفنا عندَ حالِ الناسِ قبلَ مجيءِ هذا العام:

فهم في ضَنْكٍ وشِدَّة ويتحاملونَ على الجوعِ والعطش، وضِيقِ المأكلِ سنةً بعدَ سنة.

حتى إذا ما اقتربَ الوعدُ الذي وُعِدوه اشْتَدَّ عليهمُ الأمر، وصارَ الانتظارُ أشَدَّ صعوبةً، وصارَ الزمنُ في نَظَرِهم أكثرَ طُولاً..

وهذه طبيعةٌ في البشر نَلْحَظُها في عمومِ الناس، والمثالُ المُصَغَّرُ على هذا الأمرِ هو الصِيام، فإذا ما دخلَتْ الساعةُ الأخيرةُ منَ النهار، شعرَ الصائمون وكأنّ هذه الساعةَ تَعْدِلُ كُلَّ ما ذَهَبَ منَ النهار.

ولذلك كانَ جوابُ يوسفَ عليهم السلام في هذه الآية، وكأنّهُ يُعَبِّرُ عن حالِ الناسِ عندَ نهايةِ السنةِ السابعة، فألْقَى على مجيءِ عامِ الفرَجِ ما يَسْتَحقُّه منْ تعبير، فقال: ﴿**فيه يُغاثُ الناس**﴾.

اللطيفة الرابعة: في قولِ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام ﴿**وفيه يَعْصِرون**﴾.

الواضحُ في قوله أنهم في السنوات العِجافِ هُم لا يَعْصِرون ولقد توافَقَ

المفَسِّرونَ على أنهم في سنةِ الفَرَج، يَعْصِرون الزَيتونَ زَيْتاً، والسُمْسُم دُهناً، والعِنَبِ خَمْراً.

أُشيرُ إلى هذه الحقيقة، لأنقُلَ الشُعورَ الذي يسودُ الناسَ حالَ الجَفاف: فما يقومونَ بِعَصْرِهِ يُعتبرُ منْ كماليّاتِ الطعامِ والشراب، وهذه الكماليّاتُ تقتضي أن يُبْذَلَ جهدٌ أكثر وطاقةٌ أعلى، وهي تُنْتِجُ أنواعاً من الطعامِ والشرابِ ليستْ من أساسياتِ الحِفاظِ على الحياة.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن القرآن الكريم يحتوي على كنوز اللغة والأدب بذكر مثال: سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهم، والأمثلة المشابهة كثيرة في القرآن الكريم.

٢ - للدلالة على وجوب الإدخار حتى من القليل المتوفر لاحتمال حصول أشد من الشدة الواقعة، والأمور دائماً نسبية.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٠]

تبدأُ معَ هذه الآيةِ أخي المؤمن مرحلةٌ جديدةٌ من مراحلِ قِصّةِ يوسفَ عليه السلام، وهي مرحلةُ وصولِ تفسيرِ الرُؤيا إلى الملك، وقد وضَعَتْ حدّاً لحالِ التأزُّمِ والقَلقِ والاضطرابِ التي عاينَها المَلِك، بعد أنْ عَجزَ الملأُ عن مَدِّهِ بالتفسير، وسَنَجِدُ أنّ هذه الآيةِ زَاخرَةٌ بالأَحداثِ والمواقف، وتُعْلِمُنا عنْ عناصرَ أُخرى في شخصيةِ يوسفَ عليه السلام لم نَعْرِفْها فيه بعد.